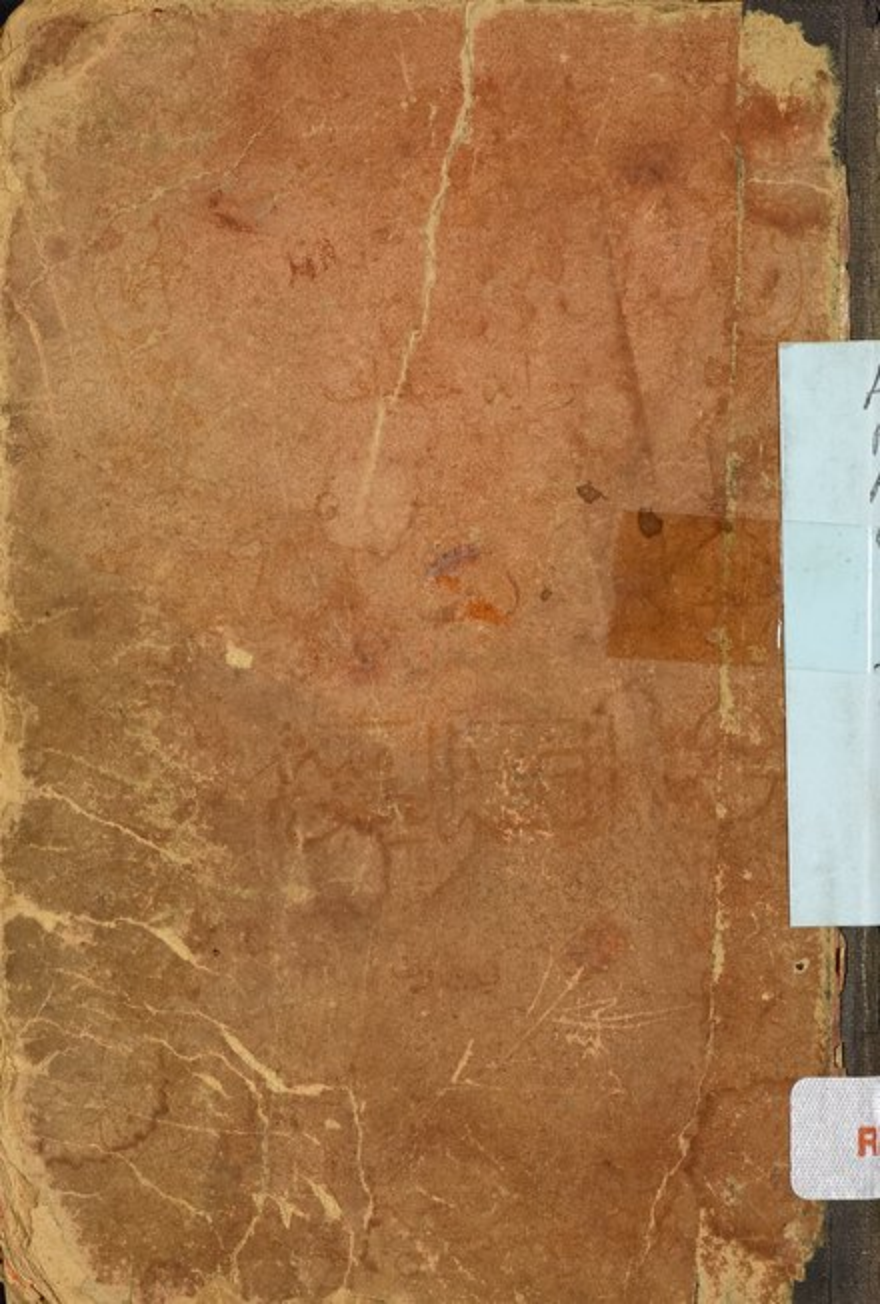

Princeton University Library
32101 086396601

كتاب

رواية جنفياف

تأليف

كريستوف شميد النمسوي

مترجمة بقلم الخواجه ميخائيل جهشان

تطلب من

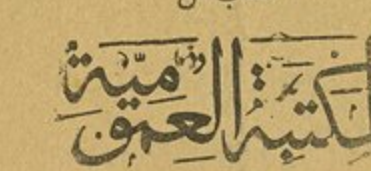

لسليم ابرهيم صادر

في بيروت

طبع في المطبعة العلمية * يوسف صادر * بيروت

الفصل الاول

زيجة جنفياف

لما اشرق نور معرفة الانجيل في فرنسا وجرمانيا تبددت ظلمات العبادات الوثنية وتحسنت اخلاق اهالي ذلك العصر المتوحشة فاستفادت الارض العقيمة منظراً بهجاً بسبب الاعتناء وحسن ادارة العملة من اولئك المسيحيين الاولين وتحولت الاحراش الى حقول مزهرة وبساتين مثمرة . وكان في ذلك العصر في البلاد الواطئة رجل عاقل يقال له الدوك دي برابان وكان ممدوحاً محبوباً من الجميع لما به من الشجاعة في القتال والتقوى المخلصة والمحبة الشديدة نحو الله والاستقامة الثابتة وكانت امراته الدوكة على جانب عظيم من حسن الخصال وكرم الاخلاق

وليست دون قرينها فضلاً وكان كلاهما على قلب واحد ونفس واحدة لم يكن لهم الا بنت وحيدة تسمى جنفياف وكانا يحبانها محبة عظيمة واعتنيا جداً بتربيتها. وان هذه الابنة اظهرت منذ حداثتها فطنة عظيمة وقلباً متوقداً وتصرفت التصرفات الحميدة واتصفت بالوداعة العجيبة والاحساسات النقوية حتى امتازت بها عن كثير من اقرانها. وكانت الدوكة حسب عوائد ذلك العصر تجلس بجانب دولابها وابنتها بعمر خمس سنين تجلس على كرسيه وتدير المغزل بحذاقة وتصنع الخيطان الجميلة متساوية وكانت في اثناء ذلك تسال امها سوالات روحية وتجيبها بالصواب عن مواضيع متنوعة وتتلفظ بكل كلمة بصوت عذب فصيح مطابق للعقل وكان كل من نظرها وسمعها يتعجب منها ويقول ان عند هذه الابنة استعداداً لاعمال خارقة العادة وكانت ترافق والديها وهي في سن العشر او الاثني عشرة سنة الى الكنيسة وعلامات حسن التقوى تلوح على وجهها البديع وقد بدت هيئتها النقية وسلامة

قلبها المتحلي بهما شخصها وقد سدلت غدائرها الطويلة الذهبية وغطى ثوبها الابيض المتموج على ذلك الكرسي المخمل الاحمر وكانت تجثو عند اسفل الهيكل رافعة اعينها الجميلة الزرقاء الممتلئة خشوعاً الى السماء وكانت تخرُّ الى الارض بخشوع فتلوح انها ملاك سموي وبالحقيقة انها كانت ملاكاً تسلي المساكين لما كانت تقصد اكواخ الفقراء ومضاجع المرضى وتاتي الاولاد بثياب من عمل يديها وتوزع على المساكين ما كان ابوها الدوك يعطيها من الدراهم لتصرفها في زينتها. وكانت صباحاً ومساءً تحمل في يدها سلة وتبادر سرًّا الى المرضى فتاتيهم بالزاد الفاخر والثمار اللذيذة وتحرم نفسها من ذلك كله وتعطيه للمحتاجين ولما نشأت وبلغت سن الصبا صارت مثالاً كاملاً في الصفات والجمال. وكان جميع الوالدات الحكيمات يقدمن هذه الفتاة لاولادهنّ نموذجاً. وكان في ذلك الزمان رجل شجاع يقال له سيجفروا كان قد انقذ الدوك المذكور في احدى وقائع الحرب وكان هذا الرجل حسن

الاخلاق كريم الطباع كاملاً في الخلق والخلق ولما كان راجعاً من الحرب اخذه الدوك معه الى منزله واحبه محبة عظيمة كانه ابنه وزوجه بابنته وفي صباح يوم كانت جنفياف مزمعة ان تسافر فيه هي وزوجها بكى كل من كان في المنزل وحزن كل اهالي تلك النواحي. وان جنفياف مع مزيد محبتها لزوجها لم تقدر توقف جري دموعها

فعانقها ابوها وقال قد ازمعت تتركينا ايتها العزيزة وانا ووالدتك نشيخ ونبقى ههنا ولا نعلم هل ترينا في ما بعد. رافقك الله في كل مكان ولتكن مخافته ومشيئته في قلبك كما تعلمت منا ولا تبتعدي ابداً عن مرضاته الالهية فيرتاح فكرنا لنحوك ونموت مسرورين

وعانقتها امها وهي تبكي بتنهد وقالت استودعك الله يا جنفياف واسال الله ان يقيك من المخاطر والاسواء. انني اجهل حظك ولا اعلم نصيبك غير ان قلبي ممتلىء من الاحساسات المجهولة التعيسة لقد كنتِ ابنة صالحة

كل ايام حياتك وكنت حظنا الاكبر على الارض ولم تهيئنا البتة . فاثبتي في حسن السلوك ولا تصنعي ابداً ما يخجلك امام الله وامام والديك واذا تممت حياتك على هذا المنوال ينتهي بك الامر بسلام . واذا كنا لانرى بعضنا في هذه الدنيا فاملنا وطيد باننا نجتمع يوماً امام عرش العزة الالهية

ثم التفتا نحو الكونت صهرهما وقالا استودعناك جنفياف فهي عندنا عزيزة للغاية وهي كفوءٌ لك فادم نحوها محبتك ووداك وكن من الان وصاعداً مكان ابيها وامها . فوعدهما الكونت سيجفروا بان يحسن القيام بما اوصيا . وجثا على ركبتيه هو وجنفياف ليقتبلا بركتهما الابوية فالتفتوا واذا ايدولف الاسقف الذي كلل جنفياف على سيجفروا داخل وكان حبراً معتبراً وشيخاً مهاباً ابيض الشعر احمر الوجه فوضع يديه عليهما وبارك وقال لجنفياف لا تبكي ايتها السيدة العزيزة ان الله قد قسم لك الحظ الصالح . . .

لكن خلافاً لما نفتكر نحن كلنا ههنا انه ياتي يوم يقدم جميع الحاضرين ههنا شكراً لله على ذلك بدموع الفرح . تذكري كلامي هذا حين تصادفين امورا غير اعتيادية .. واستودعك الله طالباً منه تعالى ان يرافقك بعنايته الالهية

فسمع القوم كلام هذا الاسقف التقي الحكيم وارتجت قلوبهم وخامرتهم احساسات مبهمة وقد توقعوا حلول تجارب عظيمة غير ان عزمهم قد تحول الى الاتكال على العناية الالهية واخذ الكونت يساعد جنفياف وقد كسا وجهها الاصفرار وتحيرت منها الافكار وامتطت متن جواده وسافر وقد اصحبها موكب عظيم من الاعيان والامراء

الفصل الثاني

سفر سيجفروا الى الحرب

وكان للكونت قصرٌ يسمى سيفروابور مشيداً على صخرة عالية جداً بين الران والموزل في ارض حسنة جداً

وعند اقتراب الكونت وزوجته من القصر اجتمع كل اتباعه وخدمه رجالاً ونساءً وفتياناً وجواري واولاداً متسربلين بافخر الملابس لاجل استقبال الكونت وزوجته وقد زينوا باب المنزل الكبير بالاكاليل الخضراء وكانت الطريق مغروسة بالزهور فانصبت اعين الجماعة نحو جنفياف لان الجميع كانوا بغاية الشوق لينظروا مولاتهم ولما شاهدوها عن قرب اندهشوا من منظرها لان صورتها كانت تلوح عليها سمات الخير والحب وكان منظرها بديعاً لان شخصها كان بالحقيقة مشتملاً على اوصاف جميلة فترجلت عن الفرس وحيت جميع الحاضرين بكل لطف وبشاشة وبالفاظ الحنو والرقة وكانت تخاطب الشيوخ بكل احترام والامهات الحاملات اولادهن او الآخذات بايديهم بكل انس سائلة عن اسمائهم واعمارهم وكانت توزع عليهم الهدايا الجزيلة حتى ابهج الجميع صنيعها وخصوصاً لما بشرت العساكر والخدم بزيادة مرتبهم في تلك السنة والفقراء بتوزيع الحنطة حسبما

اشار زوجها وهما في الطريق فصرخ الجميع معاً باصوات التهليل وهطلت دموع الفرح من اجفانهم وهنأوا الكونت وقدموا التشكرات ورفعوا الطلبات الحارة الى الله لاجل سعادة القرينين . هذا ووقفت عساكر الكونت التي كانت عنده حاملة اسلحتها بكل هدو ووقار اكراماً لرئيسهم ودموع الفرح تجري على وجناتهم

واقام سيجفروا وجنفياف في التوفيق والسعادة ولكن واسفاه فان مدتهما لم تطل الا اسابيع قليلة لانه بينما كان هذان العروسان في احدى الليالي يتناولان الطعام وقد اشعلت لهما الشموع في مقصورتهما واخذت جنفياف تغزل وتغني وسيجفروا يغني معها على نغمة العود واذ قد صوّت نفير حربي امام القصر

فصرخ الكونت الى حاجبه ما هذا . فقال الحرب فان المغاربة قد اقبلوا من اسبانيا الى فرنسا قاصدين دخول البلاد وقد دل على وقوع الشرّ حملهم النصال والحراب في كل مكان وان هنا اميران حملا اوامر الملك

فاذا امكن يجب ان نسافر هذه الليلة لكي ندرك حالاً عسكر الملك

فنزل الكونت في الحال وسلم على الاميرين واتى بهما الى قاعة الاستقبال الجميلة الكبيرة واسرعت زوجته حالاً الى المطبخ وهي مرتعدة لكي تصنع ما يقري هذين الاميرين . وصرف الكونت تلك الليلة في التاهب . والتجهز وتدبير السادة لجمع عسكره من جميع مراكز المحلة واستحضار كل ما يقتضي في وقت غيابه وبادر الامراء المجاورون فاجتمعوا الى قصره فدوى بصلصلة الاسلحة وخطوات المحاربين وصهيل الخيل واشتغلت زوجة الكونت الليل كلهُ في تهيئة ما يلزم قرى للضيوف واعداد الامتعة والحوائج اللازمة لسفر زوجها وعند طلوع الفجر اجتمع كامل الامراء بسلاحهم الى الايوان الكبير والكونت في وسطهم شاكي السلاح وعلى جبهته هلال من ريش فاخرة ووقفت العساكر رجالة وخيالة مصطفين امام باب القصر الكبير في انتظام الحرب منتظرين قدوم

الكونت

ودخلت جنفياف في تلك الساعة الايوان وقدمت لزوجها السيف والرمح حسب عادة ذاك العصر قائلةً استعمل هذه الاسلحة لمجد الله ومجد الوطن والمحاماة عن الطهارة المظلومة وامنع القبائح الفظيعة . ثم وقعت بين ذراعيه صفراء مرتعشة وافعم فوادها اضطراباً فلم تستطع ان تعبر عما في نفسها

ثم تنهدت وقالت له وقد غطت وجهها بمنديلها الذي كان بيدها اواه ياسيجفروا واذا كنت لاترجع ابداً

فاجابها الكونت كوني مطمئنة ياجنفياف لايقدر عدوٌ عليَّ اذا كان الله لا يسمح بموتي واننا في كل مكان في قبضة كف الرحمن والموت قريب منا في القصر كقربه في مواقع الحرب ولا يحمينا الا الله وحده في كل حين وهو رب العساكر والحامية الذي لا يغلب فلا تحزني ايتها السيدة العزيزة ولا تهتمي لنحوي وقد اوصيت وكيلي كولو الامين ان يعتني بكِ و بالقصر وان لا يكن

بعد سفري، وكيل قصري فقط بل وكيل املاكي فكوني اذاً مطمئنة وقد سلمتك ليد العناية الالهية فتذكريني وصلي لاجلي واني استودعك الله ثم خرج ورافقته الى اسفل السلم ومعه الامراء ولما وصلوا الى الباب الكبير ضرب النفير والمعت نصال السيوف فقابلتها اشعة الشمس المشعشعة فاراد هوان يكتم دموعه المناهزة السقوط فوثب بسرعة على جواده ومشى امامهم وتواثب الامراء وسياحرسه والعساكر جميعهم الى الميدان ووقفت جنفياف ترمق المواكب من اعلى القصر الى ان توارى عن بصرها ثم انحبست في مخدعها ولبثت النهار كله لاتذوق ماكلاً

الفصل الثالث

سفاهة كولو

بعد سفر الكونت لازمت جنفياف الاختلاء وكانت تجلس عند طلوع الفجر بقرب الطاق مهتمة بشغلها ودموعها تسيل كقطرات الندى على الازهار التي كانت تطرزها

ومتى يقرع الناقوس لاستماع القداس كانت تبادر الى كنيسة القصر وتصلي بحرارة حفظاً لزوجها فلم تكن تنزل عن كرسيها في الكنيسة مطلقاً مدة الخدمة الالهية وكثيراً ما كانت تذهب بعد الظهر الى هناك فتقضي ساعات في صلاة الاختلاء وكانت تجمع حولها بنات البرية المبنية على اسفل التل الذي يلي القصر فتعلمهن الغزل والخياطة وفي اثناء الشغل كانت تقص عليهن قصصاً مهذبة مفيدة . وقد كانت منذ حداثتها محبة للفقراء والضعفاء ولكنها صارت حينئذٍ لهم اماً حقيقة وكلما وقع بصرها على احد من المساكين كانت تساعده بكل امكانها فتتصدق عليه او تعطيه اشغالاً مفيدة هذا عدا ذهابها اليومي لزيارة المرضى في اكواخهم وكانت عذوبة كلامها ورافتها وحنوها تجعل العلاج المر عذباً وكانت تقضي ليلها بالغزل بين خدمها ومتى دخل ضوء القمر من طاق مقصورتها كانت تلعب على العود وترنم ببعض تراتيل روحية وكانت تمارس الترتيب الحسن والعوائد الحميدة

في كل اعمالها وتعامل اتباعها بالرفق واللطافة

وكان الوكيل الذي وكله الكونت ليعتني باموالهِ اعني به كولو انساناً فطناً نبيهاً خبيراً باساليب الريـاء يستجلب القلوب بكلامه الملق . ولم يكن عنده عفة ولا ذمة وكانت جميع الاعمال عنده على حدٍّ سوى قبيحة كانت ام جيدة بشرط ان يكون لهُ فيها نفع فلما سافر الكونت شرع في التسلط والسيادة واخذ يتزين بالملابس وكانت افخر من ملابس سيده ويامر كل يوم بعمل ولائم لا اقتضاء لها ويسرف مداخيل سيده وكان يعامل خدام الكونت القدماء الامناء بالتجبير والسفاهة ويقطع من اجرة العملة الصعاليك ولا يحسن على الفقراء مطلقاً حتى ولا بقطعة من الخبز ولم يكن يوقر الاجنفياف وحدها وكان اكرامه لها عظيماً جداً وكانت هي تعامله دائماً بالوقار والاعتبار وتذكره بواجباته . وكان اولاً يتظاهر امامها بالطاعة والخضوع وبذل كل عنايته في اخفاء قبايحه غير انه لم يلبث ان اخذ يتجاسر رويداً رويداً حتى

بلغت قباحته انه فاتحها بالمنكر وخاطبها بسفاهة طبعه وكاشفها بما في نفسه من الامر الفظيع فامتنعت ورفضت كلامه بكل كراهة واظهرت الغيظ من عمله ومنذ ذلك الوقت اضمر لها الحقد والبغضة وعزم على اهلاكهـا فاحست جنفياف بالشر فكتبت للكونت زوجها وشرحت عن كولو والحت عليه ان يبعد عنها هذا الشرير

وكان رئيس مطبخ الكونت المسمى دراكور رجلاً تقيًا لا مارب له الا صالح سيده وكان يناقض بقدر استطاعته مقاصد كولو القبيحة وكانت قداوصته جنفياف ان يبعث رسالتها سرًا الى زوجها مع رجل امين فشعر كولو الشرير بهذا المقصد ولما كان صبيحة بعض الايام وكانت جنفياف في مقصورتها تسلم دراكور الرسالة واذ دخل كولو وفي يده السيف مسلولاً وقتل دراكور وطفق يصرخ صراخاً عاليًا فبادر على صوته جميع سكان القصر ونظروا واذا الكونتة صفراء خرساء من الخوف مضطجعة على الكرسي وعند رجليها دراكور مجندلاً يسبح بدمه .

فاغتنم كولو فرصة تلك الواقعة ليسبق الكونتة بتقديم الشكوى عليها بالتهمة والافتراء حسب ما انطوت عليه سجيته القبيحة فتأثر كل من حضر من هذه الحادثة المريعة ثم ان كولو كتب للكونت رسالة مملوءة من التهم والاراجيف والى ان بلغه نتيجة هذا المعرض الكاذب القي جنفياف في سجن مظلم قذر

وكان كولو عالماً باخلاق سيده وكونه رجلاً صالحاً عادلاً كريماً ويعرف ما انطوى عليه من الغيرة وصعوبة الاخلاق وعدم استطاعته على كبح غضبه . وكان يقول في نفسه مهما كان الانسان بارا متى تمكنت منه عادة ذميمة قيدته كسلسلة حديد في فم دب يقاد بها بكل سهولة وكان يؤمل ان الغيظ ياخذ مفعوله معه من اول وهلة بمولاه فلا يبطي عليه بارسال الاوامر بالحكم على الاميرة وربما بموتها

الفصل الرابع

الكونتة في السجن

ان المحل المعيَّن لحبس المذنبين المدعو من الشعب برج الاشقياء كان مريعاً جداً ولم تمر بـه جنفياف مرة الا وخامرها الخوف والانزعاج ففي هذا السجن العميق المظلم البارد الرطب الذي يشبه القبر قد اودعت هذه التعيسة متروكة من العالم غير ملتفت اليها . واما جدرانه فكانت مغطاة بالعشب الاخضر وارضه مبلطة بالقرميد الاحمر ولم يدخل شعاع الشمس ونور القمر ذلك المكان المخيف الا ليظهر قباحة ذلك الحبس . وقد اكرهت هذه الاسيرة المسكينة ان تنام على القش اليابس وان تشرب قليلا من الماء في اناء من فخار وتاكل الخبز الاسود اليابس فمن كثرة بكائها ورمت عيناها وخدها

ولما هدأ من جنفياف اطرابها ضمت كفيها ورفعت عينيها نحو السماء وابتهلت قائلة ايهـا الآب السموي

الحنون الراوف ها انني مطروحة في اعماق الارض ارفع عيني اليك انا المحكوم عليّ دون الناس ولا ملجأ لي سواك ولا عين شفوقة تنظر كآبتي وصوتي لا يصل الى اذن بشر ولكن انت يا الهي تنظر دموعي وتسمع تنهداتي لانك موجود في كل مكان وانا اعلم انك حاضرٌ معي ان ابي وامي يجهلان حظي وزوجي بعيد عني واعز احبائي لا يقدرون ان يبسطوا لي يد المعونة واما يد قدرتك فتمتد الى كل مكان وانت وحدك قادرٌ ان تفتح ابواب حبسي المظلم . يا ابي السماوي ارحمني

ثم اضجعت ثانية وقد استغرقتها الاحزان ولا تستطيع البكاء وقالت ان افقر الناس اسعد مني لانه يقدر ان ينظر كل يوم لون السماء وخضرة المروج الجميلة ليتني من الراعيات او من المتسولات ولا اكون اميرة فلا اشكو ولا اتضجر على ما انوح الان اواه قد زالت وسلبت مني تلك الاعتبارات والالقاب العالية ولا املك شيئاً فان الشمس تشرق على جميع العالم وانا لا ارى نورها . واخذت

دموعها تسيل فقالت انت موجود يا الهي فكل شمس نفسي الحزينة فانني كلما وجهت افكاري اليك اشعر بنور ساطع ينتشر عليّ وقلبي المغلق بالاحزان ينشرح وتفيض اجفاني بالعبرات فارتاح واتعزى بعض التعزية

وفي تلك الساعة تذكرت النصيحة التي قالها لها ذلك الاسقف العزيز عند وداعها وكانت تقول وهي تجيل عينيها في حبسها اهذا هو السعد الذي انبأتني به ايها الشيخ الوقور اهذا ما كنت انتظره عند مروري تحت اقواس النصر المزينة باكاليل الزهور انني ادخل هذا الحبس المظلم . ومع ذلك اذ كنت يا الهي قد اوصلتني الى هذا الحبس الذي جعلته لي نصيباً فانا اعلم ان هذه المحن الشديدة هي عن مجرد محبتك وهي انعامات مستترة تحت صورة سوء الحظ نعم ان ثمار السعادة والبركات تستتر احياناً تحت رداء الصعوبات والعذاب فاذاً انا اقبل مصيبتي بتسليم لكونها من لدنك ولا اريد ان افكر الا بك ولا ارفع شكواي على مضطهديّ هذه

ارادتك يارب وانا خاضعة لها تصرّف فيّ حسب ارادتك المقدسة ولكن لا تمنع عني نعمتك فلا احد يقدر عليّ ان كنت لا تسمح بي

وبعد هذه الصلاة شعرت جنفياف ببعض التعزية وكأن صوتاً داخلياً يقول لها تشجعي يا جنفياف فانك مزمعة ان تحملي ايضاً ولكن الرب يعينك · اليوم تظهرين امام الاعين كمذنبة ولكن سياتي يوم تتلألأ به طهارتك ابهى من الشمس

فاهت بذلك واستولى عليها سبات عذب

الفصل الخامس

صارت جنفياف اماً

ومضى على جنفياف اشهر عديدة وهي تنوح في حبسها المظلم وفي كل هذه المدة لم ترَ احداً سوى كولو الذي كان يكرر دائماً على مسامعها اقوالاً قبيحة ويطلب منها القبول ببرامه القبيح واعداً باكرامها واطلاقها واما

هي فكانت تقول له ان فضيحتي الموهومة من الناس احب الي من الفضيحة الحقيقية ومكثي بالاسقام في عمق هذا البرج وانا بارة طاهرة احب الي من الجلوس على اعلا المراتب وانا اثيمة . وكان عذابها يزداد مع الايام . وكانت بعد سفر الكونت بقليل قد استبشرت بانها ستكون اماً وكان الوقت يدنو وصارت ام ولد فقالت له وهي تضمه الى حضنها يا ولدي العزيز ها قد اقبلت ودخلت الى الدنيا في هذا الحبس المظلم المخيف . وا اسفاه ان امك المسكينة لا تملك لفافة تلفك بها وليس من يقدم لها ملعقة من الطعام وا اسفاه كيف تقدر امك المسكينة ان تقيتك ثم رفعت انظارها وابنها معاً نحو السماء وقالت وهي تسكب الدموع الثخينة يا الهي انت الذي اعطيتني هذا الولد فهو لك واني اخصصه لك وكان يليق بي ان اقدمه اولاً لك ولكني لست قادرة على ارساله الى هياكلك المقدسة فانت حاضرٌ في هذا الحبس المظلم فاقبله مني ليس من يدٍ مسعفة تكون له اشبيناً ولا كاهن يقدر ان

يذكر الاشابين بواجباتهم . فاذن يلزم يا ولدي العزيز
ان تكون امك المسكينة لك مقام والدة واشبين معاً .
انا اعدك ايها الاله وعداً ثابتاً اذا حفظت حياتي وحياة
ولدي بان اربيه بالايمان الطاهر بالثالوث الاقدس واعلمه
ديانتك وان يعرفك و يعبدك وان يحب قريبه واني احفظه
من كل شر ككنز غال ثمين قد استودعتني اياه حتى اجعله
لك يوماً ما خالياً من كل دنس ورذيلة فبعد ما صلّت
برهة طويلة بصوت منخفض اخذت اناء ماء وعمدت الولد
ودعته دولور (اي وجع) حيث قالت له قد اتيت الى
العالم بين الاحزان والدموع . ثم لفت الولد بمحزمها
ووضعته على ركبتيها قائلةً هذا هو سريرك . ثم القت
نظراً محزناً على قطعة الخبز الصغيرة السوداء اليابسة
الموضوعة بجانبها وقالت هذا قوتنا كله يا ولدي المسكين
ولكن كن مطمئناً فان دموع امك تبلها وتلينها وبركة
الله تجعلها ان تكفينا . وكان الولد يوماً نائماً على ركبتيها
فانحنت عليه وتنهدت قائلةً يا الهي تعطف وانظر اليه

وا اسفاه انه زهرة نضرة تفقد حالاً رونقها ولونها وتذبل وتفنى تحت هذه الاقبية المظلمة الباردة الخالية من النور ومن حرارة الشمس وا اسفاه كيف تقدر هذه الغرسة اللطيفة ان تنمو فيها . يارب لا تتركها تموت فاني احبها كثيراً . وباي فرح انا اقدم حياتي لاجلها ولكنك انت تحبني كذلك وانت تحب جميع عبيدك المطيعين لجلالتك اكثر مما تحب الام ولدها أما انت القائل اذا نست الام ولدها فانا لا انساه

وبينما كانت جنفياف تتفوه بهذا الكلام انتبه الولد مستأنفاً بالتبسم في وجه امه فتبسمت هي ايضاً وكانت هذه المرة الاولى منذ اقامتها في الحبس . ثم ضمته الى صدرها وقالت كيف انت تبسم يا ولدي العزيز ولا تتأثر من شناعة هذا المقر . نعم تبسم تبسم دائماً تبسمك افصح من الف كلمة ويظهر لي بانك تريد ان تقول لي لا تبكي افرحي فبالحقيقة انت فقيرة جداً لكن الله غني كثيراً . انت متروكة ولكن الله قادر على كل شيء وهو

افضل مساعد انت تحبيني كثيراً لكنّ الله يحبنا انتِ وانا ايضاً كثيراً آه تبسم يـا ولدي العزيز فما دمت تبسم لا تقدر امك ان تبكي

وبعد ايام رجع كولو وتقدم اليهـا بوجه عبوس غائباً عن رشده وقال لها يبق لي صبر اشفقي على ولدك واذا كنتِ تقاومين مرادي ايضاً فاستعدي للموت انتِ وولدك فاجابته جنفياف بهدو من دون خوف ان الموت احبّ لي الف مرة من ان ارضى بما اخجل به امام الله وامام والديّ الموقرين وامام زوجي وامام كل نفس تقية. فنظر اليها نظرة مريعة وخرج مضطرباً ومستشيطاً غضباً وغلق باب الحديد دافعاً اياه بشدة عظيمة حتى خيل ان اساسات الحبس المظلم كادت تتزعزع ودوى الصدى برهة في الدهليز

الفصل السادس

رسالة من جنفياف الى سيجفروا

وسمعت جنفياف عند نصف الليل طرقة لطيفة

على طاقة حبسها الصغيرة وصوتاً عذباً يقول لها . يا سيدتي انتِ مستيقظة الى الان . اه ماذا اقول جازى الله كولو الممقوت على قباحته

فقامت جنفياف وتقدمت نحو شباك الحديد وقالت من انت

فاجاب الصوت انا ابنة حارس البرج هل تذكرين برتا التي قاست الامراض زماناً مديداً فصنعتِ معها جميلا في حال مرضها انا احبك ياسيدتي واريد ان ابين لك صدق امتناني ولكن وا اسفاه انني اتيك بخبر مريع فانك تموتين في هذه الليلة نفسها هكذا امر الكونت لانه قد صدق كونك مجرمة على ما عرّفه كولو هذا الوحش الضاري الذي وردت اليه اليوم رسالة من الكونت وقد تم اعتماده على ضرب عنقك وقد تحققت ذلك وسمعت كولو يامر به الجلادين وان ابنكِ يقتل معكِ فلا يريد الكونت ان يعرفه ابناً له مولاتي ما سمعت هذا الامر المريع الا طلبت الفرار فلم يكحل عينيّ الوسن . ولما

علمت ان الجميع غارقون في النوم قمت من فراشي مع ما بي من المرض وزحفت الى هنا وا اسفاه فلو لم آت اودعك واشكرك على افضالك واطلب منك اوامرك الاخيرة لما عشت ابداً . واذا كان عندك ما تستودعيني من امرك فلا ترتابي فان اسرارك تكون مدفونة معك ولربما يمكنني ان اشهد بطهارتك

فارتاعت جنفياف جداً ولبثت زماناً لا تنطق بكلمة واحدة لشدة خوفها . ثم قالت ايتها العزيزة لما كان صلاح قلبك قد حركك الى ما به خيري فاحضري لي سراجاً وحبراً وورقاً فقلما ففعلت الفتاة ما امرت به وشرعت جنفياف في الكتابة ولكن لما لم يكن عندها في ذلك الحبس المظلم لا كرسي ولا مائدة انطرحت على الارض وكتبت ما يأتي

قريني العزيز

انني اكتب لك هذه الرسالة الاخيرة وانا منطرحة على حضيض سجني البارد فلا تقراها الا يكون جسمي قد بلي وبعد برهة قصيرة اظهر امام العدل الالهي فقد

حكم عليَّ بالموت كمجرمة ولكن انا استشهد الله على ذلك
واموت بريئة اكدت لك ذلك امام الله وانا على حافة
الابدية ثق بكلامي فاني لا اترك هذا العالم بكذبة .
وا اسفاه يـا قريني العزيز انت الذي اتاسف عليك
لا نخداعك من الوساوس الجهنمية ولو لا ذلك لما امرت
بقتل زوجتك وولدك ولكن متى عرفت خطاءك فلا
تحزن فانك قد احببتني دائمًا وانا اعلم ذلك ولست اليك
انسب موتي . هذا حكم المقدرات الالهية غير ان ذلك
لا يمنعك عن ان تطلب السماح عن عجلتك فاقصد بانك
لا تحكم على احد قبل ان تحقق امره فليجرَ هذا الحكم
العاجل الاخير الذي ستلوم نفسك عليه فقابل هذا العمل
الردي وان يكن من غير خاطرك بالف عمل صالح وهذا
هو العلاج الانفع لهذا الجرح الغير القابل الشفاء ان
الاحزان والغموم لا تفيد شيئًا ثم افتكر بانك سترى روح
جنفياف وتعرف برارتها وامانتها وسترى ايضًا ابنك
الذي ابت عيناك ان تنظره على الارض وحينئذٍ لا تقدر

الاشرار على تفريقنا البتة ومع ذلك ان الدقايق الباقية من حياتي معدودة ولم يبقَ لي الاَّ لحظة قليلة . وها قد اكملت واجباتي الاخيرة معرفة اياك ببرارتي . واني اشكرك على الحب الذي اظهرته لي في ما عبر من ايامنا السعيدة واصحب محبتك معي الى القبر

واوصيك بوالديَّ الصالحين فكن كولدٍ صالح لهما وعزّهما عن حزنهما وا اسفاه لا اقدر ان اكتب لهما لان ساعتي المحتومة قد اقتربت . واما انت فقل لهما ان جنفياف لم تكن مجرمة واني مت بريئة مفتكرة بهما في الساعة الاخيرة واني اشكر فضلهما من صميم قلبي على كل ما ابدياه نحوي

واما كولو الاحمق فلا تقتله في غضبك فاصفح عنه كما صفحت انا ايضاً واني التمس منك ذلك فلا اريد ان اصحب معي حقداً الى الابدية ولا ان اسفك نقطة دم بسببي ولا تعامل الذين يقطعون راسي بالقساوة بل بالعكس اصنع نحوهم خيراً ونحو عيالهم ايضاً لانهم مضطرون

ان يطيعوا وانا متحققة انهم سيضربون عنقي وهم ياسفون لقتلي . وان دار كور الصالح المقتول ظلماً لانه بري كان من خدمك الامناء فاعتن بارملته وكن ابًا لاولاده اليتامى المساكين فانك تفي بذلك ديناً واجباً لان مزيد تعلقه بك كان سبب موته وهلاكه ضحية لمحبته لك ولا تنس ايضاً ان تعلن برارته الموصلة اليك هذه الرسالة التي بقيت وحدها امينة نحوي لما تركني جميع الناس وارتعدوا خوفاً من كولو

كن نحو رعيتك عادلاً ولا تعاقبهم بالعقوبات الثقيلة واقم لهم حكاماً عادلين وكهنة فضلاء واطباء ماهرين واسمع بنفسك ما يعرض عليك من الشكاوي والحاجات واصنع الخير للمساكين وا اسفاه كنت احب ان اكون اماً لرعيتك فاصنع انت نفسك ما كنت اريد ان اصنعه نحوهم من الخير وهذا الزام عليك مضاعفاً فكمله نحوهم

واني اودعك الان الوداع الاخير فلا تحزن يا

قريني العزيز فانني اموت غير محزونة لان هذه الحياة قصيرة وممتلئة من الاوجاع والاحزان ومهما كنت خاطئة فاني اموت بارّة نظير مخلصي بريئة من كل ما اتهمني به كولو. والله عادل رحوم يترأف عليّ واستودعك الله مرة ثانية فصل لاجلي . انني اتركك بقلب ممتلىء من الحنو موعب من المحبة التي تصحبني الى قبري

زوجتك المحبة الامينة جنفياف

كتبت جنفياف ما كتبته وادمعها تهطل كالسيل حتى كاد الحبر يمتزج بالدموع فلا يكاد يتمكن من قراءته ثم دفعت رسالتها الى برتا وقالت لها احتفظي على هذه الرسالة ولا تريها لاحد ومتى رجع قريني من الحرب سليه اياها يداً بيد ثم نزعت جنفياف عقدها اللؤلؤ الخاص ودفعته الى الفتاة وقالت لها اقبليه يا بنتي العزيزة مكافاة عن هذه الخدمة وهذا العقد كان من جملة صداق عرسي ومنذ استلمته من زوجي ما نزعته عني قط فاحفظيه لعرسك فانه يساوي الوفا من الدنانير ومع ذلك صرتِ

الان غنية اشير عليكِ ان لا تجعلي اتكالك على الخيرات الارضية البتة تذكري دائماً ان هذا العقد تزين به عنق مولاتك المزمع ان يقطع بحد السيف

تعلمي من مثالي هذا بانه لا يليق بنا ان نتكل على محبة ولا على تعلق انسان . وا اسفاه لم يكن يخطر ببالي قط ان الذي اهداني اللولؤ يقطع راسي يوماً ما فاذن لا تلقي اتكالك الا على الله وحده فانصرفي الآن في الحال وكوني صالحة حكيمة . فينبغي الان ان اوجه قلبي الى الله وان استعد لكي ادخل الابدية ... استودعك الله

الفصل السابع

الجلادان

وما ذهبت الفتاة الا قد فتح باب الحديد بارتجاج واذا رجلان بالسلاح الكامل قد دخلا يحمل احدهما مشعلاً مضيئاً والثاني سيفاً عظيماً وكانت جنفياف حينئذٍ تصلي وابنها على ذراعيها وعندما اضاء المشعل

راها الجلادان غارقة في صلاتها فصاح بها حامل السيف بصوت شديد الان قومي واتبعينا حالاً مع ولدك فصرخت جنفياف يا الهي ارحمني فها انا بين يديك وقامت ومشت بخطوات مرتجفة و بعد ما قطعوا دهليزاً طويلاً تحت الارض وحامل المشعل يمشي امامها والسياف يتبعها وكان يرافقهم كلب كبير وصلوا الى باب كبير من حديد فطفأ احدهما المشعل وفتح الباب واذا هم قد صاروا في الفضاء بجانب حرش كبير. وكانت ليلة من ليالي الخريف الجميلة ترى فيها النجوم تتلألأ في الفلك والقمر قد مال الى النقصان والهواء الرطب يحرك اوراق الاشجار ولم يكن احد من ذينك الرجلين ينطق بكلمة واحدة. انهما قاداها الى مكان بعيد جداً عن الحرش حتى وصلا بها الى موضع خلاء محاط جميعه باشجار الراتينج الاسود والدردار واشجار الحور المضطربة وهناك امرها احدهما بالوقوف قائلاً اركعي يا سيدتي فركعت جنفياف ثم قال لها اعطيني ولدك واعصب يا هنتز عينيها وامسك

هذا الولد بذراعيه الصغيرين مشهراً السيف واما جنفياف
فضمت الولد الى صدرها ورفعت اعينها الى السماء
وصرخت بحرارة قائلة يارب امتني ولكن خلص ولدي
فاجابها ذاك القاسي اخضعي واعطي الولد. فقالت
وهي تبكي ايها الشجعان اما في فوادكما شفقة كيف
تذبحان هذا البريء المسكين الصغير ما هي الذنوب التي
ارتكبها والى من امكنه ان يسيء اذبحاني فاني اموت
طوعاً ها عنقي فاضرباه لكن التمس من فضلكما ان تتركا
ولدي هذا حياً وتاخذاه الى والديّ واذا كان ذلك محظوراً
عليكما فانا اتوسل اليكما ان تتركاني حية ليس لاجلي
ولكن لاجل هذا الولد المسكين وانا اعدكما ان شئتما انني
لا اترك هذه الغابة ابداً في كل حياتي وانني لا ارجع
الى ما بين الناس البتة انا مولاتكما اجثو عند ارجلكما مقبلة
اقدامكما متوسلة. فاذا كنت صنعت نحوكما شراً فاقتلاني
واذا كنت ارتكبت ذنوباً فاذبحاني لكنكما تعلمان جيداً
انني بريئة اواه انكما ستندمان يوماً لكونكما لم ترحما

الدموع التي اسكبها الان فكونا رحومين نحوي فيرحمكما الله فلا يداخلكما الخداع طمعاً في جزاء دنيوي فترتكبا اثماً لان عقوبة الظلم ابدية اخشيا الله اكثر من الناس اتريدان ان يقال انكما تحترمان كولو اكثر من الله . لا تسفكا دماً زكياً لان الدم الزكي يصعد الى السماء طالباً الانتقام ولا راحة للقاتل

فاجاب الرجل الذي بيده السيف لا استطيع الا اتمام الاوامر المعطاة لي ولا يعنيني ان كان ذلك عدلاً او ظلماً فذلك عائدٌ على كولو وعلى الكونت والمسئولية عليهما في ذلك . فكررت جنفياف توسلاتها قائلة انظر السماء انظر القمر مستترًا باشجار الراتنج كانه لا يقدر ان يحتمل نظر الاثم الفظيع الذي قصدتما ارتكابه انظراه فانه احمر وكانه غارق بالدم وكلما احدقتما النظر يلوح انه يشتكي عليكما لكونكما تسفكان الدم الزكي وفيما ان القمر يتلألأ في اعلى السماوات مضيئاً على كل العالم يظهر لكما احمراره من الدم انصتا انصتا قد هبت الريح اما تسمعان

نوح الاشجار واضطراب الاوراق التي ترتعد وجميع الموجودات تضطرب من صنعكما الفظيع . ومن الآن فصاعداً تريعكما كل ورقة تتحرك . اتريان تلك النجوم التي لا تعدُّ فهي اعين يراكما الله بها هل تجسران امام القبة السماوية ان ترتكبا اثماً فظيعاً كهذا افتكرا ان فوق تلك النجوم الهاً منتقماً تمثلان يوماً امام منبره الرهيب اللهم يا ابا الايتام وحامي الارامل تنازل فلين قلب هذين الرجلين اللذين لاشك في ان لهما نساءً واولاداً تنازل فوقف ذراعيهما ومرهما بان يتركا هذه الام الكئيبة وهذا الطفل المسكين النائح امنعهما من ان يثقلا ذمتهما بقتل الام وولدها

فقال احد الرجلين الذي لبث الى ذلك الحين صامتاً وقد كان ينشف دموعه انني لا اقدر ان البث على مثل هذا ابداً . فان قلبي قد تصدع فلنتركها حية واذا كنت تحب سفك الدماء فاذهب اخيراً واضرب بسيفك عنق كولوفانه هو المجرم واما هذه السيدة فانها

لم تصنع الا خيراً افتكر في مرضك الاخير وفي ماغمرتك به وقتئذٍ من الاحسان

فاجاب الاخر قائلاً يجب ان تموت . فلا يخفاك انني التزم بان اطيع رغماً فاذا تركناها فلا يتركوننا نحن وهي لاتخلص ابداً لان كولو يجدها ولا يخفاك انه قد امر ان ناتي بعينيها كلتيهما لكي يتحقق اننا ذبحناها

فاجابه الاخر ان هذا لا يمنعنا من تركها انا اعلم كيف نقدر ان نسلك في ذلك حتى لا نكون خائنين فيجب ان نخلفها بان لا نترك ابداً هذا الحرش وناتي كولو بعيني كلبك وانا ارهن ان ضميره الردي لا يجعله ان يدقق النظر بهما فيرتاب في الحيلة ايصعب عليك قتل كلبك افتكر يا حبيبي في اميرتنا الموقرة وفي الفتى اميرنا السبت هذه الام التعيسة وهذا الولد البريء اعزّ عندك من هذا الحيوان . لاتكن بربرياً يا صاحبي كورانتز

قال كورانتز كذا فليكن كذلك فلنبتعد عن الشر وحينئذٍ عدد على جنفياف يميناً مبرمة تعاهده بها انها لا

تترك تلك البرية ابداً وجبرها ان تكوره كلمةً فكلمة والزم ايضاً رفيقه هانتز بان يحلف له على سيفه بانه لا يقول لاحد كلمة عنها ولا يذهب ينظرها فيما بعد . ولزيادة الاطمئنان قاد هو ورفيقه جنفياف الى اماكن بعيدة في الجبال والاودية حتى اوصلاها الى حرش وعر جداً لم يدخله قط انسانٌ وهناك سقطت على جزع شجرة راتينج كبيرة مغشياً عليها من التعب فتركاها وانطلقا

ثم رجع احدهما ونظر اليها باعين ممتلئة من الدموع وقال الله يتحنن عليها وعلى ولدها المسكين لانه لو لم يكن الله رحوماً اكثر من الناس لم تخلص هذه المسكينة

وحينما رجعنا الى القصر وجدا كولو جالساً في مخدعه ماسكاً راسه بيديه وهو في حالة الياس فقال كورانتز وهو واقف بالباب قد اتيناك بعيني الاميرة جنفياف واراه عيني الكلب

فصرخ كولو وقد استشاط غيظاً والقى يده على قبضة سيفه وقال بصوت رهيب لا اريد ان اراهما واذا تجاسر

احدٌ وذكر امامي اسم هذه الردية مرة واحدة لاخضبن سيفي بدمه انصرفا واخرجا عاجلاً ولا تظهرا امام عيني فيما بعد ... ثم قال في نفسه ياعجباً انني البارحة كنت استعذب جداً التفكر بالانتقام من جنفياف ولكني الآن ارى ذلك فظيعاً مهولاً وانني ارضى بقطع اصابعي لو كان الماضي لا يكون وا اسفاه ان الذي يميل الى شهواته يرى نفسه تعيساً فيما بعد

الفصل الثامن

الغزالة المعينة

ولبثت جنفياف مغشياً عليها زماناً ثم استيقظت ورات نفسها وحدها مع ولدها في تلك الغابة البريـة وكان القمر منذ زمان مستتراً والسماء غطاها الغيم والظلام متكاثف وريح مخيفة تحرّك الاشجار وبومة تنعب فوق راس جنفياف وهنالك ذيب يعوي فخامرها الاضطراب والارتعاد

وصرخت قائلة : اللهمّ قد قبض قلبي من الرعب

والخوف الا انك قريب مني فيضمحل الظلام فلا اخفى عن عينيك انك لا تغفل عن الذين يؤمنون بك قد نجيت ولدي ونجيتني من ايدي الناس فلك الشكر الدائم فانك لا تدعنا فريسة الحيوانات الضارية فعليك اضع اتكالي ولا اخاف

واقامت تحت الشجرة تضم ولدها الى صدرها واعينها مرتفعة نحو السماء وهي تنتظر بزوغ الفجر ولكن وا اسفاه ان الفجر لم ياتها الاَّ بالاحزان لانه كان صباحاً خريفاً حجبته الغيوم وتلك النواحي وعرة هائلة وكانت حيثما التفتت لا ترى الا صخوراً واشجار الراتينج الاسود وكان البرد شديداً فاعقبته الامطار ثم الثلوج وهي ترتعد من البرد وولدها فريسة الجوع والاهوال فابتدا يبكي ويصرخ فقامت ترتاد تلك النواحي لعلها تجد شجرة مجوفة او صخراً مشقوقاً تلتجيء اليه بولدها او اثماراً برية تقتات بها ... فلم تجد ثمرة واحدة في تلك الاشجار فعند ذلك اخذة تقحط الجليد بيديها الناعمتين حتى تخضب الثلج

من دمها فوجدت اصولاً برية اقتلعتها باسنانها وقدمتها لولدها

ومع انها كانت تشعر بضعف زايد سارت على وجههـا حاملة ولدها على ذراعها والثلوج تتراكم ولا تعرف اين تذهب فلمحت من اعلى اكمة وهدة صغيرة بين صخور وقد كست الخضرة تلك الوهدة فنزلت اليها بمزيد العناء ورات في بعض الصخور المجللة بشجر الراتينج شقاً فخاطرت بنفسها حتى وصلت الى غار ياوي شخصين او ثلاثة وسمعت عن قرب خرير مـاء ينبوعه كالبلور يجري من صخرة تعرش عليها فروع قرع اوراقه جافة واثمارة معفنة منتثرة على الارض لا تصلح للاكل

فدخلت جنفياف بولدها الغار فالتجأت من الهواء والمطر الا ان البرد كان قد اثر بهما والجوع قد اضر بهما فاخذ ولدها يبكي ويصرخ وقد اضحى النهار ولا تعلم ماذا تصنع فوضعته امامها على الارض ورفعت الحاظها في الغار الى العلا ورات السماء من نافذة وابتهلت الى

الله قائلة اللهم انت راوف ومعين امل بانظارك الى ام تذرف الدموع السخية والى ولدها المسكين فكما تقيت الغربان الحائمة على هذا الصخر في الخريف وليس لها ما تاكله ولا تنسى الدودة الصغيرة التي على هذا الصخر فتجد في الشتاء ما تقتات به فانك قادر ان تحفظني وتحفظ ولدي في قفر هذه البرية فتقدم لنا هذه الحجارة بقدرتك خبزاً فانك لا تسمح ان نهلك جوعاً فقد اعطيتنا الان ملجئاً فتعطينا قوتاً ايضاً

فتبدد الغيم في الحال وبعثت الشمس شعاعها الى الغار وملاته بحرارة لطيفة وسمع صوت خفيف بين اوراق الشجر واذا غزالة عند مدخل الغار . لا وحشية كاسرة ولا مذعورة فدخلت جوف الصخر من دون خوف لانه ماواها المالوف ووقفت من غير حركة امام جنفياف واما جنفياف فارتعدت اولاً ولكن اخذت تتشجع شيئاً فشيئاً وتلاطف الغزالة فانست بها الغزالة كانها قد شعرت بتلك العلامات الحبية فحينئذٍ افتكرت جنفياف بانها

نقتات هي وولدها من لبن هذه الغزالة وصرخت قائلة يا الله
ان الضرورة تجبر اماً تعيسة فترضع ولدها من الغزالة . وكان
هذا الحيوان الذي افترس الذئب خشفه يشعر بالم من
كثرة لبنه فقدم ثداءه للولد فرضعها واشعر بعدئذٍ ان جوعه
وسكن واراد ان ينام فلفته جنفياف بقسم من ثيابها
النظيفة ووضعته في حفرة صغيرة في الغار كانت طبق المرام

و بعد ما اعتنت هكذا بولدها خرجت لتجمع القرع
المتفرق فقطعت كل قرعة الى قسمين متساويين وجوفتها
وذهبت الى الغدير فغسلتها ودخلت فكانت الغزالة نائمة
فقدمت لها حزمة من الحشيش الاخضر الرطب جمعته
من جانب الغدير فنهضت الغزالة واكلت الحشيش الذي
كانت تقدمه لها واظهاراً لامتنانها لحست يد جنفياف
فاخذت تحلبها الى ان ملأت كثيراً من تلك الانية القرعية
ورفعت احدها وهو مملوء لبناً نحو السماء وابتدأت تصلي
قائلة اللهم اقبل دموع الشكر عن هذه الموهبة الثمينة نعم
ان هذا اللبن موهبة من جودتك يا من يخرج من

الصخور الصلدة المياه الجارية فاروي بها ظمائي يا من اردت ان احد العصافير الصغار يرمي حبة قرع في هذه البرية القاحلة لكي لا تعوزني انية يا من هديت خطواتي نحو هذا الغار مأوى هذا الحيوان الانيس فنات نعمتك فاصبحت انا وولدي لا نخاف جوعاً فعليك القي اتكالي واصرف هذا الشتاء بكل راحة

وشربت حينئذٍ قائلة يا له من شراب لذيذ انه لم يلذ لي قوت بهذا المقدار في كل حياتي اللهم قلما كنت اعرف واعتبر قيمة مواهبك حينما كنت اجلس على مائدة والدي الفاخرة اصفح عن عدم شكري لك كما ينبغي سامحني عن عدم اعمالي الخيرية الى المسكين اواه كم كنت اجهل وقتئذٍ قدر مرارة الجوع وكم من الناس لم اقدم لهم قوتاً حسناً ولو كان قليل الثمن

وبعد ما تعافت من ذلك الحليب وشكرت الله من صميم قلبها خرجت لتجمع من على الصخور واصول الشجر اعشاباً طرية جافة فملأت منها محزمها مراراً

وبسطتها على ارض الغار وصنعت لها ولاجل ابنها فراشاً ثم ادنت غصون الراتينج القوية الغليظة المائلة نحو باب الغار ومنعت دخول المطر والهواء

وجلست على فراش صنعته وكانت الاغصان السادة المدخل كستار اخضر ينفذ منها الى الغار ضياء ضعيف لطيف وان فسحة الغار دفاها تنفس الغزالة وشعرت حينئذٍ جنفياف ان قلبها قد ارتاح جداً فشكرت الله لانقاذها من ذلك السجن المظلم ومع انه تعالى قد يسر لها ملجأً نجت به من اضطهاد كولو كانت تفتكر بانه عتيد ان يلم بها ما ينبغي احتماله ولكنها انهضت في الحال وصلت بحرارة الى الله . وبعد ذلك غلب عليها النوم اذ كانت منذ برهة لم تنم وكان ولدها نائماً منضماً الى صدرها والغزالة الامينة لا تفارقها البتة كانت ترقد عند رجليها

الفصل التاسع

افكار جنفياف في الغابة

لبثت جنفياف في ذلك المكان محبوسة فمضى الشتاء

واقبل الصيف ولم يجر لها في ايام الصيف شيء يذكر ولما كانت تجلس في اوان الحرارة بين الصخور والاشجار العديمة النطق لم تكن تسمع الا مناغاة الطيور على تلك الاشجار ولما كان القمر في ليالي الربيع يظهر في الفلك ويضيء بشعاعه على تلك الوهدة المنفرة ولما كانت محبوسة مدة الشتاء في الغار كانت تحول بصرها نحو تلك الاراضي المتسعة المثلجة التي لم تكن ترى عليها الاَّ اثر اجفاف الحيوانات البرية فلم تكن حينئذٍ تستطيع ان تمتنع عن الشوق الشديد الى الرجوع الى مرأى والديها وزوجها واصحابها او بالاقل مرأى صورة بشرية وكانت تنهد مراراً عديدة قائلة اواه ما اسعد الناس القادرين على الاجتماع والمعاشرة اذ انهم يتحدثون ويتسلون في الشدة والرخاء وما اجهل الناس الذين لا يعرفون قيمة هذا الحظ السعيد ويكون المعشر بينهم صعباً مراً كثيراً. غير انها كانت تطمئن اذ تجيب نفسها قائلةً اللهم ان مناجاتك والاختلاء معك يفوق عذوبة على معاشرة الناس ومتى

بعدنا عن المعمورة تكون قريباً منا في البرية المقفرة وخصوصاً في هدو الليل فيا لها من سعادة عظمى حيث نقدر نناجيك في كل آن يا محباً مخلصاً لانفسنا واكتسبت بهذه الطريقة مخاطبة الله تعالى بحرارة قلب بليغة حتى انها بهذا الحديث الباطن الانيس لاحت لها الساعات تمضي كاللحظات

وانه وان يكن يلزم لها اوقات وشغل كثير بالتفتيش على اقتلاع شروش وقطف اثمار برية الا انها كثيراً ما كانت تلبث بدون عمل ولا تعلم ماذا تشتغل وحينئذٍ كانت تقول لماذا لا يوجد عندي إبر وقطن او صوف فاصرف بشغل مفيد هذه الساعات الطويلة المارة سدى والمضجرة جداً فاكتسي انا وولدي يسيء الناس كونهم يتعبون في اشغالهم لكن الحياة بدون شغل محزنة وعديمة المنفعة وان الشغل الكثير التعب عذب بالنسبة الى البطالة وكانت احياناً تتاسف لعدم حصولها على كتب جيدة وتقول ان القراءة حسنة ومفيدة لي ومع ذلك يا الهي ان اعمالك المحيطة بي هي كتاب

مفيد جدا لانك انت نفسك مبدع هذا الكتاب وابتدأت من ذلك الوقت تتامل بمزيد الامعان ما ورد في كتاب عجائب الطبيعة فكانت الزهرة الصغيرة والدودة الحقيرة في الارض وادني جعل يخولها سروراً لما كانت تتأملها عن قرب وانها بهذه الواسطة اكتشفت اثر الحكمة والرافة الالهية

واما الذي كان يسرها بزيادة فهي معرفتها ان يسوع المسيح في امثاله الجليلة كان يستعمل تشبيهات ما كانت تراه حولها في عمق تلك البرية من الاشياء ولما كانت الشمس ترسل اشعتها الى الغار في ايام الربيع كانت تصرخ قائلة بابتهاج يا اله الجودة ان شمسك هي صورة رافتك الابوية الكثيرة الجمال قال يسوع ابنك الحبيب ان الاب السموي يشرق شمسه على الاخيار والاشرار فتشبه اذن شمسك محبتي نحو الناس اواه انني كنت اصنع خيراً عظيماً نحو اعدائي لو قدرت على ذلك . وكان عندها خوف لنحو معيشتها . واذ كانت تسمع تغريد

الطيور كانت تصرخ قائلة يا ايتها المخلوقات الصغيرة البديعة انك مسرورة ودائمًا تغردين لمَ لا اسر واترنم مثلك فان يسوع يريد ذلك لانه قال لنا انظروا الى طيور السماء فانها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع شيئًا في الاهراء ومع ذلك ابوكم السماوي يقيتها الستم انتم اعظم منها ولا شك يا الهي في انك تحبني اكثر من جميع هذه الطيور فاذًا اسر اكثر من الجميع ولا اضطرب ولو لم تزرع او تحصد لي يد بشرية

ولما كانت تتامل الزهور المتنوعة التي كانت حول مأواها كانت تقول وانت ايتها الزهور الزاهية تشهدين لي في رجاء الله لان يسوع كان يضرب امثال بزهور مثلك قائلا هكذا تأملوا في زهور الحقل كيف تنمو ولا تتعب ولا تغزل ولكن اقول لكم ان سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها فان كان عشب الحقل الذي يوجد ويطرح غدا في التنور يلبسه الله هكذا فليس بالحري يلبسكم يا قليلي الايمان فلهذا لا اريد ان اكون ضعيفة في ايماني

ولا جبانة ابداً وان كنت في هذا الوقت لا اقدر اغزل ولا اخيط فلا اهتم قائلة ماذا اكل وماذا اشرب او ماذا البس

ولما كان يشتد في الصيف الحر في المكان الذي كانت تذهب تروي ظمائها من ينبوعه كانت تفتكر قائلة يارب كلمتك الالهية هي في نفسي كهذا الماء البارد في شفتي الجافتين انت قلت ان الذي يعطش ياتي اليّ فيروى والماء الذي اعطيه يصير فيه ماء حي لاجل الحياة الابدية فان هذا الينبوع العقلي الذي هو نبع ديانتك المقدسة يغمرني بالتعزيات ويسقيني ماء الافراح المقدسة فالان تنقصني التعزيات الخارجية كافة وقد بعدت مني جميع لذات الالفة

ولما كانت تتامل الصخور العظيمة التي كانت محيطة بتلك البقعة المنفردة التي صدت كرور الدهور وقصف العواصف كانت تتذكر حالاً كلام يسوع القائل ان الذي يسمع اقوالي ويعمل بها يشبه رجلاً عاقلاً بنى

بيته على الصخر ونقول على هذا الكلام ابني خلاصي

وكانت الاشواك والعوسج تقدم لها ايضاً مواضيع التعليم فتقول لو كانت هذه تنبت عنباً واثماراً اخرى لذيذة لكان ذلك خيراً لي لكن المخلص قال لا يجتني من الشوك عنباً ولا من العوسج تيناً فان الشجرة الجيدة تخرج اثماراً جيدة والشجرة الرديـة لا تخرج الاَّ اثماراً ردية فاني اجتهد بان اشابه الشجرة الجيدة وان اصنع خيراً على قدر استطاعتي ولا اريـد مطلقاً ان اشابه العوسج والشوك الذي يشيك دائماً ولا يحمل اثماراً جيدة ابداً . وهكذا كانت الشمس والطيور والينبوع والزهور والحسك والصخور والشوك علامات حسنة تذكرها اقوال يسوع وتقدم لها موضوعاً واسعاً يوجب الاعتبار

غير ان شمس الربيع نفسه وزهوره وطيوره وكل شيء في البرية لم يلذ لها ويشغفها نظير منظر ولدها وتربيته وكانت كل يوم حسن هواؤه تحمله الى خارج الغار

المظلم الى تحت قبة الجو الصافي وكانت احياناً وقد اطلقت الغزالة لترعى تتنزه عند مدخل الغار حاملة الولد على ذراعيها وتكلمه بكل حنو فما كان يفهم منها شيئاً لكنه كان يبسط اليها ذراعيه كانه يجيب على كل من كلامها وهو مبتسم فكان هذا التبسم العذب يلذلها ويحسن باعينها الاماكن التي كانت تراها ويكسو كل ما يحيط بها بهجة وطلاوة وحينئذٍ كانت تضم ولدها الى صدرها وتنظر اليه بلهفة قائلة يا الهي لست قادرة ان اشكرك كما يليق لابقائك لي هذا الولد العزيز فكم من السرور والتعزية يخولني في هذا المقر يا الهي السماوي تنازل وبارك ولدي هذا واجعله ينمو وينجح . ما ابهى عينيه اللطيفتين وما اجمل جبينه الصغير المغطى بالغدائر الذهبية وما اشد صفاء خديه الوردين وباية طريقة يرقد في حضني . حبذا قول المخلص القائل ان لم تصيروا كالاولاد الصغار فلا تقدرون ان تدخلوا ملكوت السماوات فياليت جميع الناس يكونون عاريين من الكبرياء والحسد

والبغض وسائر الاميال الردية كهذا الولد في طهارته و بالنتيجة يكونون بحالة السذاجة نظيره . فبالحقيقة يكون نعيمنا في داخل قلوبنا ونقدر ان نعيش في هذه الدنيا سعداء بين الناس كهذا الولد في حضن امه

وكثيراً ما كانت تتوق كل التوقان ان تذهب الى الكنيسة وتقول يالعظم سعادتي لو كنت مجتمعة مع الوف من المؤمنين الساجدين في المكان المقدس لاستماع كلام الله وترتيل الاتقياء يرتفع نحوه تعالى اواه ليت لي نصيباً ان اسمع صوت ناقوس ما فقط لا غرو كنت اتعزى نوعاً ومع ذلك كانت تجيب نفسها بطمأنينة ان الطبيعة بكمالها والسماء التي فوق راسي والارض التي حولي هي هيكلك ايضاً يا الهي وان القلب الذي يحبك و يتوق اليك بحرارة هو مذبح لك . فليكن اذن هذا الوادي الوعر هيكلاً لك وليكن قلبي فيه مذبحاً فما من شجرة ولا صخر هناك الا وكان شاهداً لاستغراقها في صلاتها

الفصل العاشر

تربية دولور

وكان ولد جنفياف في تلك الوحدة يزداد لطفاً وجمالاً كازدياد ونمو محاسن ازهار الحقل اللطيفة وقد تحسن وتجمل وصار يستطيع الركض . وان ذيباً اختطف يوماً عنزاً بريا فاخذته ام الولد وسلخت جلده والبسته لولدها وما كان يقتات الا بالاعشاب البرية والحليب والماء ومع ذلك كان متعافياً في صحته وكانت قواه العقلية الحسية تتكامل رويداً رويدا وتاخذ مفعولها الطبيعي واخذ يميز الاشياء التي حوله و يفهم الاقوال و يكررها

وكانت جنفياف منذ زمان طويل لم تسمع صوتاً بشرياً فلما ابتدا ولدها يلفظ بعض كلمات صريحة سرّت سروراً عظيماً وخصوصاً حينما كان يكرر اسم ماما اللطيف وكان ذلك في ابتداء فصل الشتاء وصارت في تلك المدة تقضي ساعات كاملة في التكلم معه وعلمته اسم ما كانت تراه من الاشياء في الغار وفي الوادي الصغير من

الشمس الى الصوانة الصغيرة ومن علو شجرة الراتينج الى ادنى عرق من الاعشاب الخضراء وبعد برهة وجيزة استطاع كلاهما ان يتحدثا ملياً عن الاشياء المذكورة على قدر ما يمكنه ادراك عقله وفهمه الصغير وقواه الحسية فسرت لذلك والدته سروراً لا يوصف وكانت تتضاعف مسرتها في كل يوم وهكذا صرفت اوقاتاً في ذلك الشتاء الشديد ممزوجة بالسرور

وكان قد انتهى مرض الولد حيث لبث زماناً لا يستطيع الخروج من الغار واخذ في دخول الربيع يتجه الى الصحة وينمو ويتعافى ففي صباح احد الايام الزاهية اخذته امه الى البقعة الصغيرة المزينة بالزهور وعند نظره بهجة الربيع ورونقه المرة الاولى تأثر جداً ومن شدة تأثره وقف مندهشاً والقى بصره متأملا في ما حوله وصرخ قائلا ما ما . ما هذا . كيف ان كل شيء قد تغير واستحال الى جمال بديع فهذا الوادي كان مبيضاً بالثلج فما اجمل اخضراره الآن وكانت اغصان الاشجار

عارية مجردة من الاوراق وليس بها الا اوراق قليلة مصفرة وها انها الآن مغطاة باوراق صغيرة غضة وكيف ان الشمس تتلألأ وتدفيني والسماء زرقاء جميلة فانظري كم يوجد الوف من الاشياء الجميلة العجيبة على الارض انظري هذه الالوان المختلفة ما بين ازرق واصفر ما اجمل محاسنها

فاجابته جنفياف يا ولدي العزيز هذه الاشياء الصغيرة تدعى زهور فانا اقطف لك قليلاً منها فقطفت وقالت له وقد اشارت الى واحدة منها هذه تدعى زهر اللولو انتظر ما في وسطها من الاصفرار الجميل وجمال اطرافها الارجوانية ذات الاوراق الصغيرة البيضاء المحيطة بها وهاك زهوراً اخرى من جملة ازهار الربيع فاستنشقها قليلاً وهذه الزهرة الصغيرة التي تراها يقال لها بنفسج وهي ذات رائحة لطيفة فخذها انا اعطيك اياها كلها ويمكنك ان تقطف منها ما يسرك فقطف منها الولد باقة كبيرة جداً حتى لا يكاد يضبطها بيديه

الصغيرتين

ثم اخذته جنفياف الى غيضة خضراء عند طرف تلك البقعة الصغيرة وقالت له اصغ ياولدي العزيز اما تسمع شيئاً فاصغى الولد باذنه وكانت اول مرة سمع فيها اصوات الطيور المتنوعة وكانت فرق عظيمة من هذه الطيور تجتمع في ذلك المكان المنفرد وكان على كل الاغصان وتحت العوسج مئات من الاصوات الجميلة تغرد معاً . فلنذهب نرى ما هذا تعالي ماما تعالي

فجلست جنفياف على صخرة غطاها العشب الاخضر وظللتها اشجار الزان الصغيرة ثم اجلست الولد على ركبتيها كما كانت تحمله مراراً عديدة في الشتاء وفي اوائل الربيع طرحت امامها حفنات من حب الاغصان البرية فتساقطت عليها طيور كثيرة جميلة متنوعة الاجناس وجعلت تلتقط منه بسرعة فقالت له امه هذه هي الطيور التي تغرد فتأخذ بمجامع الفواد

فانذهل الولد فرحاً وقال هذه انت ايتها الموجودات

الصغيرة التي تغردين حقاً انتِ تعرفين ان تغردي افضل من الغربان التي تنعق في مدة الشتاء بقبح صوتها المحزن وانتِ اجمل منها كثيراً . ولكن ما ما قولي ما هي اسباب جمال هذا الوقت وبهجته ومن اين تصدر كل هذه الاشياء الجميلة لانه لستِ انتِ التي استطعت ان تريني هذه البقعة بنوع مبهج في الغاية اذ كنت انا مريضاً وقد لاحظت جيداً انك لم تفارقيني لحظة واحدة هذا ولا اظنك قادرة على ذلك

فاجابت الام يا ولدي العزيز انا حدثتك قبلاً عن ابينا السماوي الله الذي خلق الشمس والقمر والنجوم فهو الذي صنع كل هذا حتى نسر بها

فقال الصبي ياله من الهٍ محبوب حكيم راؤوف فتبسمت جنفياف من هذه الاقوال اللطيفة وقالت في نفسها وهي تضمه الى صدرها وتحنو اليه ان كثيراً من الاولاد الذين يسمعونك تتكلم هكذا يدعونك غبياً ويهزأون بك الا انه يليق بهم ان يتذكروا انهم هم انفسهم

كانوا يهزأون بك الا انه يليق بهم ان يتذكروا انهم هم انفسهم كانوا على هذه الحالة وانهم كسائر الناس لم يحصلوا على قوة المعرفة الا تدريجاً وفي اليوم الثاني ايقظها دولور باكراً جداً وقال لها ماما ارجوكِ ان تقومي فنذهب ننظر ما صنعه الله جديداً فتبسمت له جنفياف بحنو واخذته الى المكان الاخضر بين الصخور حيث كانت الشمس في اشد حرارتها وكان النبات ينبت فيه مبكراً وكانت قد رأت فيه اشجار من التوت الاحمر مزهرة وبها اثمار ناضجة حمراء كالقرمز فسألها الولد هل هذه هي ايضاً زهور

فاجابت جنفياف كلا هذه اثمار التوت الاحمر وانحنت وقطفت له ثمرة من احسنها وقالت له افتح فمك وذقها فاكلها الولد ووضع يده على صدره وقال اه كم هو لذيذ هل اقدر اقطف منها ايضاً

قالت له امه نعم ولكن من الثمار المحمرة كثيراً

فحينئذٍ مد الولد يديه وابتدا يقطف ويأكل وقال

ما اعظم رافة الله فانه يعطينا اشياء حسنة جداً

فسالته جنفياف اما تظن انه يجب عليك ان تشكر الله لاجل ذلك فرفع الولد بصره المتلالي نحو قبة السماء الجميلة ولثم يده الصغيرة وارسل لثمة نحو السماء وصرخ بكل قوته قائلاً احمدك يا رب على هذه الاثار اللذيذة التي اعطيتني اياها ثم قال لامه ولكن هل سمعني الله فاجابته وقد ضمته الى صدرها وتبسمت نعم ولو لم تنفوه بذلك بل لو افتكرت به فقط بدون ان تلفظ بكلمة فان الله ينظر ويسمع ويعلم كل شيء

ومن ذلك الوقت كان يريد دولوران ينظر كل يوم مصنوعات الله فقالت له والدته يجب ان تبحث بمزيد الاعتناء ثم تخبرني عن الاشياء التي تكتشفها حديثاً انظرها انه يوجد بازائنا عند ظل تلك الشجرة الكبيرة التي في الجانب الشمالي حيث لم ينزل الثلج الا منذ ايام قليلة اغراس ذات اشواك سوداء جارية يقال لها شجر الزعرور وحول بصرك الى الجهة العليا فترى شجرتين كبيرتين تفاحة

ونجاصة بريتين وتامل في ذلك جيداً فانك لا ترى الا الازرار المالئة اغصانها تامل جيداً ما يطرأ عليها من التغيير ثم اخبرني عنها

وفي الليلة التالية سقط مطراً بارداً انمى الاوارق والازهار فبادر الولد وهو ممتلىء من الفرح الى امه قائلا ماما ان الكريات الصغيرة الخضراء التي على اغراس الخوخ صارت كلها زهوراً جميلة بيضاء كالثلج وامتلأت الاغصان ذات الاشواك من الاوراق الصغيرة الخضراء وامتلأت من الازهار البيضاء والحمراء يا له من منظر ما اعظم رافته تعالى . هلمي اذا ما ما وانظري فذهبت جنفياف فقال لها اظن ان هذا الزعرور يزهر ايضاً ازهاراً جميلة حمراء اما ترين ان الاحمرار يلوح قليلاً على خارج الازهار الصغيرة لربما ان الله تعالى لم يكفه الوقت لتتميم كل الاعمال في هذه الليلة

فاجابت جنفياف يا ولدي العزيز ان هذه الاشياء جميعها لم تكلف الله شيئاً من التعب وكان يمكنه تتميم ذلك

في دقيقة واحدة لانه قادر على كل شيء. قال ولكن اخبريني كيف قدر الله ان يصنع ذلك من دون نور فاجابته جنفياف ان الله يبصر كل شيء في الليل كما في النهار فتعجب دولور من ذلك

وفي صباح احد الايام بادر دولور وهو ممتلئ من الفرح الى امه وصرخ قائلاً ماما وجدت الآن بعض اشياء جميلة في الغابة وسار بها الى قرب زعرورة وقال لها اما ترين شيئاً في وسطها

اجابت جنفياف هذا عش للطيور وكما ان لنا غاراً لهذه العصافير اعشاش أترى العصفور ينظر الينا من داخل بكل طمانينة ... وها هو الآن يطير فتامل وكره ولكن احترس من ان يصيبك الشوك وانظر الى خارجه كيف هو مضفور من عروق الاخشاب اليابسة والمصفرة والى داخله كيف هو مفروش بصناعة الاعشاب الخضراء والقش الصغير المسمر وقالت له انظر جيداً وقد رفعته

فصرخ قائلاً آه ما الطف هذا المنظر ولكن ماهي

هذه الخمس الكريات الصغيرة الصافية التي انظرها في العش

قالت هي بيضات لونها اخضر فاتح وفيها خطوط حمر صغيرة

قال وماذا يصنع الطير في هذه البيضات

قالت سترى نتيجة ذلك في ما بعد ويكفيك ان تنظر الى هذه البيضات يوماً بدون ان تلمسها

وبعد ايام كان دولور مرافقاً لامه فذهب ثانيةً ليرى العش المذكور فوجد مكان البيضات عصافير صغيرة فقالت له انظر هذه العصافير كيف هي صغيرة ولا تبصر وليس لها ريش ولا يمكنها ان تطير وتخرج من عشها

فصرخ الولد قائلاً يا لها من مخلوقات بديعة فقولي لي ماما اليس عليها خطر ان تهلك برداً وجوعاً

فاجابت كلاً يا ولدي العزيز فان الله يعتني بها . فان داخل الوكر مفروش ببطانة لينة ومكسوٌّ قشاً ناعماً ترقد عليها العصافير الصغيرة بكل راحة وحرارة وهو بشكل

مستديرلا تتصادم به الفراخ فتتالم والذي اقام هذا الوكر العجيب هو الطير الكبير نفسه اليس هو مصنوعاً جيداً فلسنا نحن بقادرين ان نصنع نظيره فقد علم الله سبحانه وتعالى ابوي هذه الافراخ ان يتقنا هذا الفن لحفظ اولادهما الصغيرة المسكينة وان الشجرة الغليظة التي هذا الوكر موضوع بينها تظلله من حرارة الشمس وتقيه من الامطار . وعند ما يتندى الهواء ليلاً او صباحاً اومساء تاتي ام هذه العصافير بسرعة وتبسط عليها اجنحتها لتغطيها وتصونها من البرد . وان شوك هذه الاغراس التي يظن ان لا منفعة له يمنع الغراب المفترس من اكل الافراخ المسكينة لكونه يوله جداً عند دخوله الى العش حيث ان والدة هذه الفراخ مع كل صغرها تمر بسهولة بين الشوك من دون ان تتالم وانت تدري يا ولدي العزيز ان الاشياء كافة حتى الاشواك تبرهن لنا جلياً عن جودة الله واهتمامه

وعند ما كانت تتكلم عن ذلك اقبلت ام تلك الافراخ مرفرفة فوق الاغراس ودخلت في وسطها ولبثت

بجانب الوكر والافراخ ترفع رؤوسها وهي تناغي وتفتح مناقيرها والام تعطيها الاكل وعند هذا المنظر استولى على الولد ما لا مزيد عليه من السرور والابتهاج وصرخ قائلاً ما اجمل هذا وابهجه

فاجابت جنفياف ان العصافير الصغيرة لا تذهب للتفتيش على قوتها لان امها تحضره لها واذا كانت الحبوب صلبة جداً فالام تسحقها وتليّنها قبل ان تعطيها لافراخها افليس هذه غاية عجيبة من نحوه تعالى ما اعظم اهتمامه بمخلوقاته حتى ادنى العصافير وانه يهتم بنا كذلك فانه تعالى قد نظر اليك حتى الآن يا ولدي العزيز و يواصل عنايته بك

قال الولد لاغروان الله اعتنى بي واعطاني اياكِ يا امي العزيزة وانا احبك جداً واعلم انك تحبيني اكثر من محبة هذا الطير لافراخه ولولاكِ لكنت هلكت من زمان طويل فاه بذلك والقى نفسه على عنق امه

ومن بعد ذلك كان دولور يكتشف يومياً اشياء

جديدة ليخبرها و يريهـا او يحضرها لامه لان اهتمامها الوحيد كان متجهاً نحوه ولا رفيق له في طفوليته يفسد طبيعته ولا ملاعب طفلية يلهو بهـا وكان يستنتج من ذلك ان عقله كان يمتد و يتسع بسرعة وكان يحب امه للغاية وكان كل شيء من موجودات الطبيعة العجيبة يوثر في قلبه الصافي تاثيراً شديداً وكان يحضر صباحاً لامه باقة زهور جميلة و يملأ يومياً سلالاً صغيرة كان جدالها من القش من اثمار التوت الاحمر ومن الاثمار التي كان يجدها وكان ياتي بها باكراً ممتلئة من ثمر العليق او من ثمر التوت البري و يزين الغار القاحل بالحلزون والصدف والحصى اللامعة و بسبب بهاء الفلك صار للغار منظر حسن في الغاية . وكان الولد في كل يوم يحدث امه عن نمو كروات الخوخ الصغيرة المخضرة و كروات الزعرور وعن افراخ العش كيف كانت تقوى رويداً رويداً وصار لهاريش صغير والخوخه غطتها اخيراً ثمار سوداء لامعة والزعرورة ثمار قرمزية حمراء جداً والعصافير جميعها اخذت تطاير

وعند نظره المرة الاولى كوكب الصبح الجميل الساطع والشمس لطيفة تغرب ما بين اغصان الراتينج المظلمة ومشاهدته قوس قذح تاثر من هذه العجائب وكان دائماً يركض يستدعي امـه لتاتي معه وتنظر وتتعجب من هذه الاشياء فسرت امه سروراً عظيماً اذ كانت تنظر حذاقة ولدها فسكبت جنفياف دموع الفرح فقالت ايها الاله ان القلب البري يقدر ان يجد فردوساً حتى في البرية ايضاً والنفس التي تحبك وتكون حالاً فيها تنال سعادة سماوية في نفس الشدائد والآلام وكانت هذه الام الحكيمة تنصح ولدها عن خطر الاغصان السامة الكثيرة في تلك النواحي البرية وقالت له لا تاكل شيئاً قبل ان ترني اياه والاَّ فتمرض مرضاً شديداً وكانت تنصحه ايضاً عن خطر العصيان والعناد والهوى والشراهة وعن باقي نقائص الطفوليه وتقول ان هذه النقائص اضر من الاغصان السامة واسفاه ان الخطيئة كثيراً ما تشبه تلك الحبوب المحمرة الخادعة الاعين ولكن

استعمالها مميت والشر كثيراً ما يجلب بصرنا ويخدع عواطفنا اكثر من الخير

الفصل الحادي عشر

الشتاء في الغاب

قد مضى الربيع والصيف واقبل الخريف وكانت الشمس يومياً تتاخران تشرق ولا تتأخران تغيب وقد قل بهاؤها وحرارتها واخذ ضباب كثيف مظلم يحجب السماء الصافية وكفت الارض عن ان تنبت شيئاً وتقاعدت الطيور عن تغريدها وهجرا كثرها اوطانه واخذت الزهور تذبل وتزول واوراق الاشجار المصفرة تكمد وتتساقط وتثيرها الرياح العاصفة وبينما كانت جنفياف جالسة على باب مغارتها تتامل وهي حزينة بذلك الاضمحلال المتوالي وقلبها مملوء من الاضطراب لقرب الشتاء قال لها دولور ما ما هل عدل الله عن ان يحبنا حتى رفع عنا جميع عطاياه او ازمع العالم ان ينقضي

قالت كلا يا ولدي ما دمنا صلحاء وحكماء فالله يحبنا دائمًا ولا تتغير الاّ الاشياء الارضية اما محبة الله لنا فهي ابدية فان تغيير الطبيعة علامة لقرب الشتاء ولكن الشتاء دائمًا يلحقه الربيع وعليه يمكنك دائمًا عند قرب الشتاء ان تفرح لعود الربيع

وقالت في نفسها وا اسفاه يا ولدي العزيز انت الذي مذ اخذت تعقل ولم ترَ الشتاء الا هذه المرة ليس عجبًا ان كنت لا تعرف ان بعد الشتاء الربيع وقد علمت امك ان الشدائد تعقب الافراح ومع هذا لا يصعب عليّ ان اصدق ذلك وقد استولت عليّ الاحزان ومع هذا كله اريد ان اتسلح بالشجاعة والامانة وانا في حال المشقات فلا افتكر الاّ في السعادة المستقبلة حتى اكون مسرورة ومرتاحة نظيرك

وكانت جنفياف يوميًا تقطف تفاحًا ونجاصًا بريًا وجوز زان و بندقًا وقراصياء وكانت تجمع من الاثمار ما يمكنها ان تبقيه مونتها في الشتاء وقلعت شروشًا كثيرة

ودولور يساعدها على ذلك بكل نشاط . وكانت قد جمعت شيئاً من الحشيش اليابس لاجل الغزالة ولكن كان يهمها الملبوس اكثر من القوت وثوبها الوحيد الذي لبسته سنين ليلاً ونهاراً قد بلي فكانت وهي جالسة باكية على باب الغار تضم ما تمزّق منه الى بعضه بالشوك وعروق الحشيش ولكن ذلك لم يثبت . وكانت تقول في نفسها وهي متنهدة وا اسفاه كم اكون سعيدة اذا حصلت على ابرة وشيء من الخيطان فكم من الاحسانات الربانية يتمتع بها يومياً الناس في الالفة وقل من حمد الله على ذلك

قال لها دولور يوماً وقد شعر بحزنها الشديد ماما اتذكرين ما كنتِ تقولين لي سالتك يوماً عن غزالتنا لماذا يتساقط شعرها انه في كل صيف يعطيها الله ثوباً جديداً اشقر خفيفاً ويعطيها في كل شتاء ثوباً اخر جديداً ازرق يدفئها فتشجعي اذن ماما فهكذا يعطيك الله تعالى ثوباً اذ لا شك في انكِ اعز عنده من الغزالة فاجابت جنفياف متبسمة قد اصبت يا ولدي العزيز اني

اثق بان الله يفتقدنا وان الذي يكسو الحيوانات والزهور يكسونا نحن ايضاً

و بعد ايام قليلة اوصت ابنها ان لا يبرح من الغار واخذت عموداً غليظاً وعلقت بطرفه قرعة مجوفة مملوءة حليباً وذهبت بعيداً لتطلب اشجاراً تصلح اثمارها للاكل وعند ما وصلت الى قمة بعض الجبال العالية جلست لكي ترتاح وتشرب قليلاً من الحليب حتى تبرد غليلها فبادر اليها في الحال ذئب مخيف كاسر من ناحية الجبل الثاني حاملاً في فمه نعجة فلما ابصر جنفياف وقف وتفرس فيها وعيناه تقدحان ناراً فارتعدت وارتجفت كل مفاصلها غير انها قامت بسرعة وقد حملت العود بين يديها واقتحمته وضربته ضربة شديدة على راسه حتى داخ ورمى النعجة وسقط الى اسفل الجبل ومن هناك هرب هاوياً فركعت جنفياف بقرب النعجة وسكبت قليلاً من الحليب في فمها لترى هل هي حية فوجدتها قد ماتت فحرك منظر ذاك الحيوان المسكين في قلب جنفياف

احساسات مختلفة مولمة وقالت وا اسفاه عليكِ ايتها النعجة المسكينة هل كنتِ في تلك النواحي الحسنة حيث ولدت انا وانني منذ زمان طويل لم ار ولم اسمع شيئاً اتى من ذلك الوطن العزيز حيث لو بقيتِ حية الى الى الآن فكم كان يشملني من الفرح اذ اطعمكِ واعتني بكِ . وكم يسر ولدي لو حصل عليكِ وربما انتِ من ماشية زوجي الكثيرة او من جملة ما كان قد خصص لي ثم صرخت قائلة وهي تتامل فيها ما هذا انما انت من قطيعنا ها هي علامة غنمنا اه لو كنتِ حية وكان لكِ صوت بشري فاسالك ماذا يعمل زوجي الآن وهل رجع من الحرب وهل يفتكر بامراته وهل لم يزل مغتاظاً مني او تاكد براءتي وا اسفاه الان هو يعيش في التنعم وانا في بؤس وشقاء

فامعنت النظر وعلمت انها في مكان لا يبعد من موطنها ولولا ذلك لم يستطع الذئب ان ياتي بالنعجة الى هذا المكان ثم حدثت نفسها قائلة ترى هل يوافقني

الرجوع اليه مع ولدي واخذ قلبها يضطرب ودموعها تسيل ثم افتكرت قليلاً وقالت في نفسها الاولى بي ان ابيت ههنا لانني مرتبطة بيمين مبرمة قد اقسمت بها خوفاً ولكن ليس ذلك بسبب عادل لارجع في قسمي ولربما تكون جسارتي هذه سبيلاً لهلاك الرجلين اللذين ابقياني في الحياة فاذاً الاولى بي ان البث ههنا الى ما شاء الله فاذا شاء تعالى اخراجي من هذا القفر فهو قدير ان يبعث باناس من اهل الشفقة الى هذه الوهاد فاني احتمل كل مصاب ولا اغيظه تعالى

ولما لم يكن عندها سكين لسلخ النعجة ذهبت الى المسيل واخذت صدفة كبيرة وسلخت بها الجلد ثم غسلته من الدم والغبار ولما نشف لبسته حالاً ولذلك ابطأت في الرجوع الى غارها فلم تدخله حتى المساء ولما رأها دولور من بعيد بادر الى لقائها وهو يقفز فرحاً ويصرخ ماما ها قد رجعتِ . فقد انشغل فكري من نحوك اين كنتِ كل هذا الوقت ولما كان الليل لم يمكنه ان يعرفها لسبب

الجلد الذي لبسته فرجع سريعاً لكي يختبي في الغار وحالما سمع صوتها العذب يقول له لا تخف ياولدي العزيز انا امك عاد حالاً وصرخ قائلاً فليكن اسم الرب مباركاً أهذا انتِ يا امي يا لعظم سروري فقولي ما الذي تلبسين الآن انكِ تلبسين مثل ملبوسي فمن اين لكِ ذلك

قالت الله ارسل لي ملبوساً

قال يا امي العزيزة اما قلت لكِ دائماً ان الله يعطيكِ كسوة جديدة تدفئك في الشتاء ثم جس الجلد وقال ما اسمكه وانعمه وما هذا البياض الذي فيه فانه يشابه الغيم الابيض الخفيف الذي نراه في الربيع لاغرو ان هذه هبة سماوية ثم دخل كلاهما الغار واحضر دولور لامه اناء من القرع مملوًّا حليباً وسلة صغيرة مملوة اثماراً وحينئذٍ اخبرته كيفية حصولها على الجلد مفصلاً

وما لبثا ان جبرهما المطر على الاستكنان في داخل الغار ولكن كانا يتنزهان احياناً في الوادي متى انقطع المطر . وفي بعض التنزهات قالت جنفياف لابنها انظر

يا ولدي كيف يمكنا ان نتامل عظمة الله في كل مكان وكثرة امداد عنايته الابوية حتى في نفس الشتاء تامل لطافة هذا النور المتلالي في هذه البقعة الكثيرة الثلوج ومتى اشرقت الشمس عليه رأيته قد زينته اشعة حمراء وخضراء وزرقاء ثم متى تعرت هذه الاشجار من اوراقها يبقي الله اوراق شجر الراتينج الخضراء لكي تلتجي اليها حيوانات الغاب وشوك العرعر الناشف يثمر ايضاً في الشتاء حباً ازرق طرياً فيكون قوتاً لطيور الغاب الصغيرة ولا يجلد ينبوع مائنا ابداً فيمكنا ارواء عطشنا منه . ونرى دائماً ينبت بقربها اعشاب دسمة تقتات منها طيور صغار فما اعظم اهتمامه تعالى بمخلوقاته وما اكثر انعامه ورافته التي نراها في الشتاء ايضاً ومتى كان الجو مضطرباً والريح الشمالية تهب بشدة كان دولور يبذر حفنة حبوب متنوعة امام باب الغار فتاتي العصافير العذبة الاصوات وتاكل هذه الحبوب وكثيراً ما كان يطرح حشيشاً يابساً بقرب الغار فكانت الماعز البرية والارانب تبادر اليها حتى

انست الارانب انساً تاماً وصارت تاتي وتاكل من يده وكذلك الماعز البرية فاخذ يلعب ويقفز ويركض معه

ونالت جنفياف مدة الشتاء سروراً عظيماً غير انها تعذبت حيث كان من عادة دولور متى رقد ينام الليل كله. وكانت جنفياف وهي جالسة في مأواها وحدها بدون رقاد تقول لو كان عندي سراج صغير وكتاب او قنب ومغزل فكم كنت اتعزى فان ادنى جواريّ الان اسعد مني لانهن يصرفن ليالي الشتاء الطويلة في المحادثات والصفا فتخال الليالي لحظة ولكنها كانت تحول عنها هذا الافكار المكدرة حالاً وتوجه قلبها نحو الله وتقول يا لعظم سعادة الانسان اذا كان متديناً يعرف الله ولولاك يا الهي ما حصلت في هذا الوقت على من يمكنني ان اتحدث معه ولولاك لحرمت الحياة منذ زمان طويل غماً وحزناً فانت وحدك ايها الآب السماوي تاتينا بالتعزية مدى الحياة

الفصل الثاني عشر

مرض جنيفاف

وقضت جنيفاف وولدها فصولاً شتوية في الغار وكان الشتاء السابع من اقامتها في تلك البرية اشد من باقي الفصول السابقة فسقط ثلج قحطي غطى الجبال والاودية حتى كسر اغصان السنديان والزان القوية وكانت جنيفاف قد سدت مدخل الغار جيداً ولما كان الهواء الشمالي يهب بشدة ويقحم الغار بالثلج كانت تتعمق جداً في فرشتها السميكة التي من العشب الاخضر وكان الثلج يبل ويجلد ذاك العشب وباب الغار تسده الاغصان وحيطانه تكسوه المياه وقطع الثلج ولم تكن حرارة نفس الغزالة الطبيعية كافية لتخفيف مثل هذا البرد الشديد وكانت الثعالب تعوي من البرد وعواء الذئاب يدوي منه ليلا ذلك الغاب وهكذا قضت جنيفاف ليالي كاملة ولم يغمض لها جفن بسبب البرد الشديد وخوفاً من ان يفترسها وولدها الوحوش الكاسرة

ودولور الذي كان معتاد على القوت الغليظ وصعوبة المعيشة كان مع كل هذا البرد في غاية الصحة ولكن جنفياف الاميرة المترفهة التي ربيت في المنازل الفاخرة وكانت تلبس احسن ملبوس لم تكن تقدر ان تسكن تلك المغارة الباردة الرطبة فصرخت قائلة وهي باكية ودموعها تتساقط كقطع الجليد لعمري ان قليلاً من النار او شرارة واحدة هي عندي عطية ثمينة ولربما اهلك برداً في وسط هذا الغاب لعدم وجود شرارة ومع ذلك لتكن مشيئتك يا الله فانا اخضع لقضائك وكان وجهها قد تغير واحمرار خدها اللطيف زال رونقه واصفرت كانها ميتة وحينئذٍ غارت عيناها الجميلتان من حجابهما وفقدتا بهائهما وخف النظر لمزيد ضعفها

فصرخ دولور وقد مزقته الاكدار قائلاً مالك يا امي العزيزة فانك في حال غريبة ربي ما هذا

قالت يا ولدي العزيز انا مريضة كثيراً واظن انني مزمعة ان اموت

فصرخ الولد قائلاً تموتين مامعنى الموت ما سمعتك سابقاً تتكلمين عن ذلك

فاجابت جنفياف بصوت ضعيف سانام ولا افيق البتة وحينئذٍ لا تعد عيناي تنظران الشمس واذناي لا تسمعان ويلبث جسدي ممتداً ويابساً على الارض ولا اقدر ان احرك عضواً من اعضائي ابداً وينتن لحمي ويتحول الى تراب

فعندها القى نفسه على عنقها باكياً وما زال يراجع هذه الكلمات ماما ماما لا تموتي ارجوك لا تموتي

فاجابت جنفياف لا تبكي يا ولدي العزيز فان امر موتي لا ينوط بي بل بالله وحده متى تشاء ارادته الالهية

فصرخ الولد قائلاً يا الله وهو في غاية العجب ولكنك كنت تقولين لي دائماً ان الله رؤوف فكيف سبب لك وجعاً فلا اجسر انا قتل عصفور ... فكم بالحري انت

فاجابت قد اصبت يا ولدي العزيز ليس يمكنك

ان تتركني افنى فكم بالحري ان تميتني ولكن الله تعالى يقدر على ذلك ولما كان حيًا الى الابد اراد ان يعطينا حياة ابدية . هذا بيان ذلك لك هل تذكر يا ولدي العزيز خلع ثيابي القديمة وطرحها حيث لا نفع منها فاعطاني الله ثوبًا احسن ... وانا ساخلع واطرح ايضًا هذا الجسد المائت فيبقى في التراب واما انا فاذهب وارى ابانا السماوي وهو الله تعالى وحينئذٍ يعطيني عوضًا عن هذا الجسد الحقير جسدًا اجمل منه كم اكون سعيدة في السماء وكم يكون نصيبًا صالحًا حيث لا اخاف من البرد ولا من الامراض ابدًا وهناك لا بكاء ولا الام بل سعادة دائمة وكما ان الربيع هو اجمل من الشتاء كذلك السماء هي اجمل من الارض نعم ان الربيع الزاهي ليس الا بمنزلة ليلة من ليالي الشتاء المحزنة المظلمة بالنسبة الى صفو السماوات وكل انسان عمل صلاحًا يصعد يومًا الى السماء

قال دولور ماما انا اريد ان اذهب معك ولا احب ان ابقى ههنا وحدي بين الوحوش الكاسرة لانها

لا تجيبني اذا حدثتها فاريد ان اموت ايضاً واترك هذا الجسد

قالت يا ولدي العزيز انت تبقى على الارض واذا كنت حكيماً وتقياً تلحقني الى السماء لانك تموت يوماً ما لكن اسمع الان ما اقوله لك انه متى انقطعت عن التكلم معك وانقطع نفسي وانطفأت عيناي وتغير لون شفتاي و يبست بداءة البث هنا ثلاثة ايام تحقق في اواخرها اني مت لما يخرج من جسدي من الرائحة غير المحتملة التي تملا هذا الغار وحينئذٍ فتترك هذه البرية وتسير راساً نحو الجهة حيث تبزغ الشمس وتصل بعد يومين او ثلاثة اخر هذا الغاب وترى امامك بقعة كبيرة يسكنها الوف من الناس

فصرخ دولور متعجباً وقال الوف من الناس انا كنت اظن اننا وحدنا مخلوقات هذه الدنيا البشرية فلاي سبب لم قلت قبلاً فلو استطعت المسير لكنا نذهب اليهم حالاً

قالت وا اسفاه يا ولدي العزيز ان هولاء الناس هم

الذين نفونا الى هذا القفر بين الوحوش البرية وارادوا ان يقتلونا انت وانا

قال . اذن لا اريد ان اذهب الى ما بينهم ابداً وكنت اريد انهم كلهم يكونوا صالحون مثلك يا ماما وهل هولاء الناس يموتون ايضاً

قالت لا شك في ان الناس كلهم يموتون

قال كنت اظن انهم يجهلون الموت كما كنت اجهله انا فعليه اريد ان اصرخ بهم قائلاً مزمعون كلكم ان تموتوا في يوم ما فتأدبوا والا فليست السماء من نصيبكم افما يصدقونني

قالت انهم يعرفون ذلك ولكنهم لا يتادبون بل يعيشون متكاسلين والارض تعطيهم الذ الاثمار التي لا نظير لها في هذه البرية . وعندهم الذ السمك وافخر الماكل وثيابهم فاخرة وقد حاكت الوانها الزهور وان كبارهم يزركشونها باشياء ثمينة تسطع كالكواكب ومنازلهم فاخرة للغاية حتى لا قدر ان اصفها لك وفي الشتاء تشرق الشمس

على مساكنهم فلا يبردون وفي الليل يجعلون مساكنهم منيرة كنور النهار الا ان الاكثرين لا يخطر في بالهم ان يشكرون الله على هذا الاحسان بل لا يفتكرون فيه اصلاً ويبغضون وينكرون ويعذبون بعضهم بعضاً على قدر امكانهم ويشاهدون يومياً من يموت بينهم ولا يعتريهم ادنى حزن ويلبثون على معيشتهم غير المرتبطة كانهم خالدون على الارض

قال فاذن انا ارفض من كل خاطري الذهاب اليهم وارى هولاء الناس ليسوا فقط اردى من الذئب بل بلداء مثل غزالتنا هذه التي لا تفهم شيئاً من كل ما نقوله . ولا اريد شيئاً من ماكلهم فالافضل لي ان اكل مع الحيوانات البرية لان هذه عدا عن الذئب تعيش اقله في السلامة مع بعضها وتقتات براحة من الاعشاب والاغصان وانما اعتمد على الاقامة بين الوحوش ولا اذهب ابداً الى ديار هولاء الناس

قالت يجب مع ذلك يا ولدي العزيز ان تذهب

اليهم وهم لا يضرونك واسمع ايضاً ما اريد ان اقوله لك انني الى هذا الوقت لم اتكلم معك الا عن ابيك السماوي الذي هو في السماء غير انه لك اب على الارض كما ان لك اماً عليها

فصرخ الولد مسروراً اب على الارض هل اقدر ان امسكه بيده نظيرك واليس هو غير منظور كالاب الذي هو في السماء

قالت الام نعم يا ولدي العزيز ستنظره وتتكلم معه

قال سانظره واتكلم معه واخذت عيناه تتلألأ من الفرح ولكن لماذا لا يأتي لينظرنا ولماذا يتركنا وحدنا في هذا المكان اليس هو ايضاً احد اولئك الاشرار . قال ذلك وهو في ريب

قالت لا يا ولدي العزيز هو صالح ولا يعلم ابداً اننا ساكنون هذه البرية ولا يعرف ايضاً اننا باقون في الحياة بل هو متاكد انني اشقا النساء وقد حمله الناس على ان يصدق هذا الكذب

قال وما معنى كذبة

اجابت الام متى تكلم الناس ضد ضميرهم فيقولون مثلاً انهم يحبون بعضهم البعض جداً وهم يكرهون بعضهم فذاك يدعى كذباً

قال دولور اذلك ممكن فهو لا يخطر ببالي وهز براسه وقال الناس الناس فانهم اقوام برابرة في الغاية

قالت هكذا انخدع ابوك بكذبة ثم اخبرته بما يمكنه فهمه من قصتها وقالت هاك هذا الخاتم الذهبي فقد اخذته من ابيك

من ابي دعيني اتامله عن قرب فاني قد نظرت اشياء كثيرة جميلة من ابينا السماوي كالشمس والقمر والنجوم والزهور ولكن ما نظرت في حياتي شيئاً من ابي الذي على الارض

فنزعت جنفياف الخاتم وسلمته اياه. فقال دولور ما اجمله هل عند ابي كثير من هذه الاشياء الجميلة وهل يعطيني منها

قالت لا شك في ذلك وردت الخاتم الى اصبعها
فحين اموت خذ هذا الخاتم لانني اريد ان احفظه الى
الموت كما انني حفظت له محبة وصداقة الى الموت ومحبتي
له نقية كذهب هذا الخاتم وصداقتي موبدة لا نهاية لها
كهذه الدائرة فهذه علامة سرمدية الزمان وهكذا متى
تصل الى الناس تستخبر عن الكونت سيجفروا لان اباك
هكذا يدعى والتمس ممن تصادفه ان يقودك اليه ونكن لا
تقل لاحد من انت ولا لماذا تريد ان تذهب الى الكونت
واحذر من ان تري هذا الخاتم لاحد مهما كان ومتى
وصلت الى ابيك فاعطه الخاتم وقل له يا ابي ان امي
بعثت اليك بهذا الخاتم لتتاكد انني انا ابنك وهي قد
ماتت منذ ايام قلائل وتقريك السلام وتقول لك
بلساني انها بريئة اولاً واخيراً وقد سامحتك وهي تامل
ان تنظرك في السماء حيث لم تقدر ان تراك على الارض
وتوصيك ان تعيش فاضلاً ولا تحزن عليها وان تعتني
بي ولا تنس خصوصاً يا ولدي العزيز ان تحقق جيداً

انني بريئة وصادقة وانني ثبت لك ذلك ساعة موتي واني مت وانا اكرر لك ذلك • عدني بانك تقول له ذلك مدققاً وقل له ايضاً انني عند موتي كنت احبه قدر محبتي لك ثم اخبره كيف عشت هنا وكيف انتهت ايامي والتمس منه ان يطلب جسدي لكي يدفنه في قبر اجداده لاني لست محرومة منهم

واقول لك شيئاً لم تعلمه الى الان فاعلم ان لي اباً واماً فاذا كانا باقيين في قيد الحياة بعد مصيبتي هذه فالتمس من ابيك ان يأخذك اليهما فيفرحان فرحاً لا يوصف متى نظرا ابن ابنتهما العزيز وفرحهما هذا ينسيهما آلام السبع السنين الطويلة التعيسة كلها وقالت وهي تسكب الدموع المدرارة ويلاه ان ابي الصالح قد حزن كثيراً على حظي وامي الراوفة قد سكبت دموعاً غزيرة على ابنتها اواه يا والديّ العزيزين ما اعظم اشتياقي الى النظر لوجهيهما الموقر فلو تعلمان بانني باقية في قيد الحياة لكنتما تتشوقان الى ان تنظراني • ولكن وا اسفاه انتما تظنان ان

جسدي قد تحول منذ زمان الى التراب في زاوية منفردة في هذه النواحي المقفرة فيا لسعادتنا متى رأينا بعضنا في السماء لانه لولا التعزية لما احتملنا الام هذه الدنيا نحن البشر المساكين . انت الان تبكي يا ولدي العزيز وتغتم على فقد امك القريب ولكن يعوض الله عليك باعطائه اياك اباً صالحاً فنشف اذاً دموعك فان اباك يحبك بكل حنو ويعتنقك بحب ولا يكل من ان يدعوك ولده العزيز ويسالك ويخبرك اشياء كثيرة عن سيرتي وكلما نظرك لا يقدر ان يمنع دموع الغم والفرح من الهطل

ولم تستطيع جنفياف ان تتكلم بعد هذا الكلام لما اعتراها من شدة البكاء فانطرحت واهية القوى على فراشها الحشيشي واشتد ضعفها المفرط فلم تنطق بكلمة واحدة

الفصل الثالث عشر

علم دولور في الديانة

ومع ذلك كان برد الشتاء الشديد يتناقص وكان ينسم هواء لطيف واخذت الشمس تدخل الى الغار وكان شعاعها يعطي حرارة ضعيفة نشفت الثلج فذاب وسال واما مرض جنفياف فكان يزداد يوماً فيوماً وشعرت بقرب انقضاء اجلها

وكان دولور يجلس دائماً في ليالي الشتاء الطويلة بجانب امه مغموماً ولم يردان ياكل ولا يشرب لشدة ما اعتراه من الحزن وكان يخدمها بقدر استطاعته ويعتني بامرها بكل محبة وحنو وكان يملأ يديه من العشب ويمسح الحيطان الرطبة لكي لا يسقط الماء على امه المريضة وهو يتقطر في سيلانه وكثيراً ما كان يستحضر من العشب الاخضر عن الصخور ومن اصول الاشجار التي حولها لكي يعمل لها فراشاً ناشفاً وكان تارة يذهب الى الينبوع ويفتش لها على قرعة من الماء البارد ويقول

لها اما تريدين ان تشربي يا ماما انت ملتهبة الامعاء وشفتاك ناشفتان وكان يحضر لها تارةً قرعة مجوفة ممتلئة من الحليب الصافي ويقول لها اشربي يا امي العزيزة هذا الحليب فانه جيد وهو سخن من ثدي الغزالة ثم كان يقبلها باكياً ويقول يا امي العزيزة ليتني انا عوضاً عنك واموت لاجلك وقامت جنفياف في صباح احد الايام بعد ان نامت ساعات عديدة متوالية نوماً لطيفاً ورايقاً فرأت نفسها مرتاحة واخذت تخاطب ولدها قائلة له قد كنت علمت ان ابانا السماوي له ايضاً ابن مساوٍ له في كل شيء ولكن ما قدرت ان اخبرك عن كل ما صنعه هذا الابن لاجلنا فتعلم بذلك اشياء كثيرة لا تعرفها لانك بعيد عن الناس وقد ربيت اليوم في وهدة عميقة والان لست تجهل ان على الارض اناساً عرفتك عوائدهم واطباعهم وتعلمت مني ما هو الموت واني اجهد ان افهمك ما هو ضروري من تاريخ ابن الله فاسمع اذن باصغاء ولا تنسَ ابداً اقوال امك فان قلب

الله الرحوم ابينا السماوي اذ كان متاثر للغاية من نظره الى الناس وهم اشرار فاسدو القلوب بهذا المقدار مع انهم حقيرون الى الغاية ولم يستطع ان يقبلهم بعد موتهم في ملكوت السماوات ارسل اليهم من اعالي السماء ابنه الوحيد الحبيب وهو الذي يهتم في اصلاحهم وينقذهم من حالتهم هذه واسمه المقدس يسوع المسيح

وهذا الابن الالهي هو مساوٍ للاب في القداسة والقدرة والمحبة وقد صار انساناً ونزل الى الارض وكان طفلاً اصغر منك ايضاً وكان مع امه كذلك في مغارة تشبه مغارتنا تقريباً وتاوي حيوانات مختلفة ولما صار شاباً اقام زمناً في بريه مخيفة اكثر من هذه وكان يصلي على الدوام لكي يحصل على ما كان مزمعاً ان يقوله للناس وعلى ما يستعمله لاجل خلاصهم فلا يذهب سدى ثم ذهب الى ما بين الناس واظهر لهم ان الاب السماوي ارسله اليهم وانه اعني الاب السماوي رؤوف يحبهم ويشفق ويتحنن عليهم ولهذا يجب عليهم ان يسعوا

ليكونوا حكماء جداً ويحب بعضهم بعضاً وان يحبوا على
الخصوص اباهم الصالح اي اله الكل وان من يصغى الى
اقوالي ويتادب ويرجع ويسلك في طريق الرب يكون
مقبولاً في السماء حيث يتمتع بافراح كثيرة ولكن
من يسمع صوتي ولا يتبعني فلا يذهب الى السماء بل الى
مكان مخيف حيث يناله العذاب الشديد . غير ان الناس
ابوا ان يسمعوا ليسوع المسيح وان يومنوا بانه ابن الاب
السماوي وان الاب السماوي ارسله فحينئذٍ ابتدا يصنع
العجائب لكي يريهم ان سلطته وقدرته من ابيه . مثلاً
مرضت والدة كبيرة نظيري وما استطاع احد ان يشفيها
فياخذها يسوع بيدها نظير اخذي لك تماماً وفي
الساعة نفسها نالت الصحة وعادت الى حالها قبل المرض
وكان في احد الايام شاب اكبر منك قليلاً يموت وكان
ولداً وحيداً لامه نظيرك وانت تفهم كيف ان الام
المسكينة كانت تنتحب فتأثر ابن الله من المها وقال لها
بحنو لا تبكي ابداً وقال للميت قم فرجعت حالاً الجثة

حية وقامت واخذه ابن الله الى جانب امه التي فرحت لذلك فرحاً لا يوصف ومع ذلك كانت الناس تابى ان تصدق ابن الله ان اباه قد ارسله الى العالم ولم يقبلوا قوله لهم انهم اشرار وانه يجب عليهم ان يسمعوا ليصطلحوا وحينئذٍ اخذوا قطعتين من خشب الواحدة منها كبيرة جداً والثانية اصغر منها ونصبوا الطويلة قائمة وجعلوا الاخرى عليه وذاك يدعى صليباً ثم ثقبوا يدي ورجلي ابن الله بالمسامير التي تشابه الشوك تقريباً ولكنها اقوى واقسى منه كثيراً ثم علقوا ذراعيه المبسوطتين على الصليب وحينئذٍ جرى دمه واقتضى ان يموت واما الناس فانهم ضحكوا ايضاً من ذلك وازدروا به جداً ... ومع هذا كله لم يكن يصنع لاحد شراً بل كان ذا نية صالحة نحو الجميع حتى انه كان يساعد كل الذين يلتمسون معونته

فصرخ دولور قائلاً ما اقبح الناس الاشرار لا غرو انهم يخوفونني ولكن ترى الآب السماوي كان يقدر ان ينظر ذلك كله ولم يحقق فلاي سبب ما نزل

عليهم رعوده و بروقه فلو كنت انا في موضعه لكنت اهلكتهم جميعاً

فاجابت الام يا ولدي العزيز ان الابن توسل الى ابيه لاجلهم اذ كان على الصليب بين هذه الالام الشديدة وعند موته كان يصلي ايضاً ويقول يا ابتِ اغفر لهم لانهم لا يدرون ما يصنعون ومات حباً بالناس جميعاً من دون استثناء ومحبة بكل الذين عاملوه بالقسوة وكل هذا يا ولدي العزيز لانه لولا الذبيحة العظيمة لما كان دخل احد الى السماء لا انت ولا انا ايضاً وكذلك لاجل محبتنا نحن الاثنين قدم حياته لله

فكان الولد الشديد التاثر جالساً لا يتحرك و يسمع باصغاء عظيم وكانت دموعه تسيل على وجنتيه الموردتين لانها كانت المرة الاولى التي سمع فيها كل هذا وقد تاثر جداً وكان يقول وهو ينشف دموعه بجلد الغزال الذي كان يستعمله كثوب يا يسوع الرؤوف اهو نفسه الان في السماء

فاجابت الام اي نعم يا ولدي العزيز جسده بقي غير حي فوضعوه في قبوة كانت تشابه غارنا هذا تقريباً وسدوا المدخل وقد دحرجوا عليه حجراً كبيراً ولكن انظر ما جرى . انه قبل نهاية ثلاثة ايام خرج من قبره حياً وان عدداً صغيراً من الناس الاقل رداءة كانوا يسمعون اقواله وتابوا واحبوه كثيراً وبكوا على موته وعند ما قام حضر بينهم وفرحوا جداً لما نظروه قال لهم انه مزمع ان يرجع الى ابيه الذي في السماء فاغتم كل احبابه من ذلك غماً شديداً غير انه قال لهم لا تبكوا ولا تحزن قلوبكم ابداً انظروا ان في العلا حيث يسكن ابي مكاناً كافياً لكم والان لست ذاهباً لى هناك الالكي اهيء لكم مكاناً . مارسوا فقط ما علمتكم به وستاتون يوماً ما الي وانا ساعود فانظركم وحينئذ يصير فرحكم كاملا ولا يقدر احد ان ينزعه منكم ابداً واني ان كنت غير منظور الاانني ساكون دائماً في وسطكم على الارض الى نهاية العالم ثم اعطاهم بركته وصعد قدامهم

الى السماء واختطفته سحابة ذهبية عن بصرهم

فقال الولد ما كان اجمل هذا لكن هل يتذكرنا الان ايضاً وهل يعرف اننا نحيا هنا في هذه البرية وهل ننظره كذلك بعد ايام في السماء

فاجابت الام ولم تتردد انه يرانا حيثما كنا وهو معنا و يحبنا و يملا قلوبنا من الاحساسات الجيدة و ياخذ بيدنا لنزداد طهارة يوماً فيوماً يا ولدي العزيز انت ولد صغير صالح وحكيم جداً وطائع كثيراً وقد سببت لي سروراً جزيلاً ومع ذلك يجب ان تكون صالحاً للغاية وتمارس الصلاح في كل فرصة مثلاً لو قتلت لما كنت تشفع في قاتليك كابن الله لانك الان قلت لي انك لو استطعت لاهلكتهم عن اخرهم فترى من ذلك انه يوجد فرق في اشياء كثيرة بين ان تكون صالحاً و يكون عندك هذا المقدار من المحبة نظير ابن الله ومع ذلك يجب ان نصير صالحين محبين نظيره اذا احببنا ان نكون مقبولين عنده وعند ابيه السماوي وانا نصل يوماً ما الى ملكوته

وهو يرغب مساعدتنا ليجعلنا صالحين وصديقين نظيره ولهذا جاء الى العالم ومات على الصليب . وهذا كله صنعه لاجل خلاصنا

وبعد ما تكلمت جنفياف زماناً طويلاً بهذا المقدار رأت انها مضطرة ومحتاجة الى بعض الراحة فقالت لابنها ايدك الله بالسعادة بقرب ابيك لانك ستخرق هذا الغاب الكبير المقفر وتقطع صخوراً شامخة واودية عميقة ولكنها طريق متعبة وطويلة ومخطرة عليك يا ولدي المسكين الضعيف لي امل بالله انه يعينك حتى تصل الى ابيك الذي وهبك اياه تعالى في هذا العالم وكما يعين الجميع في سياحتهم في هذا العالم الكثير يصلوا اليه بالسعادة فانه الاب الحقيقي الوحيد في السماء ويشاهدوا هناك وجهه . ولا تنسَ ابداً ان تتزود بعض قرعات مملوة من الحليب لكي تبرد حرارتك في الطريق وخذ ايضاً العصا لكي تقدر ان تدافع بها عن نفسك من الحيوانات البرية يا ولدي المسكين انك

بدون ريب ضعيف جداً ولكن الله الذي القى امامي ذئباً عظيماً يحميك ايضاً من هجوم الحيوانات الكاسرة ومن يلقي اتكاله عليه لا يخاف من الاخطار

وعند المساء ازداد مرض جنفياف وضاق نفسها وكلل وجهها العرق وحينئذٍ جمعت قواها ونهضت جالسة على فراشها الذي من العشب الاخضر واحدقت نظرها الكئيب بابنها وهو جالس بجانبها وصاحت بصوت شديد مضطرب قفز الولد لشدته قائلة اركع لكي ابارك ك كما باركتني امي حين وداعنا فركع الولد المسكين وهو ينتحب وطاطا راسه نحو الارض ورفع يديه المرتجفتين متخشعاً فوضعت جنفياف يدها على راس ابنها وقالت بصوت مضطرب يباركك الله يا ابني العزيز ويكون معك يسوع المسيح ويعضدك ويمنحك الروح القدس لتصير انساناً فاضلاً ولا تفعل شراً ابداً فاقدر ان انظرك في السماء ثم ضمته بين ذراعيها وقبلته قبلة والدية وقالت له يا دولور انك مزمع ان تذهب بين الناس حيث ترى

اشياء كثيرة قبيحة فلا تقتدِ بها ولا تصير شريرًا ابدًا يا لتعاستي اذا نسيت حنوي ودموعي الوالدية واقوال والدتك المنازعة وتصير شقيًا فنكون واسفاه متفرقين الى الابد في الاخرة فانا اتضرع اليك يا دولور ان تحافظ على تقاك وفضائلك ولم تقدر ان تكلمه اكثر من ذلك فانطرحت ثانية على فراش الاوجاع واغمضت عينيها . ولم يعلم دلور هل هي نائمه او مائتة فركع الى جانبها باكيًا منتحبًا وكان لا يفتر من الصلاة ويصرخ قائلاً لا تدعها تموت ابدًا يا يسوع المسيح انا اتوسل اليك ان توقظها

الفصل الرابع عشر

نخس ضمير الكونت سيجفروا . احترام كولو طهارة جنفياف

ان الكونت سيجفروا حين حتم وارسل حكم الموت على امراته جنفياف بسرعة غضبه واستنادًا على شكاية كولو كان يلازم خيمته لجرح شديد اصابه وكان

فولف رفيقه القديم في الحرب وحاجبه وقتئذٍ في القرى فعند رجوعه دخل خيمة الكونت سيجفروا لكي يطمئن عن صحة سيده فاخبره الكونت حالاً بكل ما جرى. فصرخ ذلك الخادم القديم الايام وقد اصفرت منه الالوان مولاي ماذا صنعت فان امرأتك بالحقيقة بريئة واقسم بشيخوختي وبياض شعري انها نقية نقية وسيدة مرباة تربية حسنة لا يدخلها الفساد بهذه السرعة. ثق انني اعرف ذلك بالاختبار واما كولو فهو شرير وقدير ان يفوز بثقتك جميعها ولكن ثق بكل ما تجاسرت واكرر عليك ان الذي يملقك ويحقق لك فهو عدوك وهو يحتقرك في الباطن ولا ينظر الا الى خيره الخصوصي واما الذي يقول لك ولو لم تحب ان تسمع له فهو صاحبك فاصغَ اذا لاقوالي يا سيدي الامير واسرع حالاً برفع قضائك العاجل يا اله السماء ما هذا الخداع الذي انخدع به سيدي انت تعتقد انك ترتكب ذنباً عظيماً اذا حكمت على احقر رعاياك بدون استماع دعواه ومع

ذلك قد حكمت على امراتك الطاهرة بدون فحص البتة ترى متى تستطيع كبح غضبك فان الغيظ كثيراً ما اورث فوادك الندم واخاف الان ان يجلب شراً عظيماً

فاعترف الكونت انه قد سلك في هذا الامر العجلة ومع ذلك لبث مرتاباً في هل المذنب زوجته او نديمه كولو لان كتاب كولو كان مملوءا اكاذيب ومركباً بحذاقة وافرة وكان الرسول الذي اختاره كولو خبيثاً وصاحب دهاء فكان كلامه يوافق كتاب كولو موافقة تامة حتى انطلى خداعه على هذا السيد العظيم . غير انه لما تاثر من توبيخات فولف الامين ارسل في الساعة نفسها ساعياً اخر وقد امر بالاقتصار على ضبط الاميرة جنفياف في محلاتها من دون ان يدعها تحتاج شيئاً او يغيظها بنوع من الانواع واركب الساعي فرساً من احسن خيله وامره ان يسير بمزيد السرعة ووعده فضلاً عن ذلك بمبلغ عظيم اذا كان يصل في الوقت الى قصر سيفروابور و ياتي بجواب يسر

وبينما كان الساعي في الطريق اخذ الكونت يفتكر ويتحير في امره فكان يظهر له تارة ان جنفياف بريئة وطوراً ان كولو الذي كان قد غمره هو باحسانه لا يمكن ان يتجاسر على ان يخدعه بهذه الحادثة وكان هذا الريب يوله دائماً وكان يرسل فولف الامين عشر مرات في النهار الى الطريق لكي يترقب وفود الساعي وبقي ليالي كاملة لا يذوق النوم لحظة واخيراً وصل الساعي واعلن ان جنفياف وولدها قد ذاقا عذاب الموت سراً في وسط الغاب ليلا حسب امر الكونت فعند سماع هذا الخبر انطرح الكونت على الارض كان قد حكم عليه بالموت ووقع في ضعف شديد فخرج فولف آيساً وامراء الكونت الذين كانوا مجتمعين امام خيمته لعنوا كولو القبيح وحلفوا على ذبحه عند رجوعهم

وبقي الكونت سنة كاملة مريضاً بسبب جراحه لان البلبال واضطراب الضمير كانا يوخران شفاءه ولما نال الشفاء طلب اجازة وكان المحاربون كلهم قد انهزموا والخوف

منهم قد تناقص فاذن له الملك بالذهاب فسار في طريق بلاده ومعه امينه فولف وجنوده العظماء

ووصل في احدى الليالي الى اول قرية من ادارته فخرج السكان رجالا ونساء واولادهم من اكواخهم نائحين بعلو اصواتهم وقائلين يا سيدنا العظيم الجليل يا لها من تعاسة مريعة واسفاه على الكونتة وتبًا لكولو القبيح فنزل الكونت وسلم على الجميع ببشاشة ومد يده الى اولئك الناس واستخبر عن كل ما جرى في الادارة مدة غيابه فما تكلموا عن جنفياف الا ما حسن وعن كولو الا ما قبح

وسار في سبيله حتى يصل تلك الليلة نفسها الى سيفروابور وهو متكدر الخاطر جريح القلب فنظر من بعيد كل شبابيك القصر مضيئة بالانوار الساطعة ولما اقترب وقطع الجبل سمع صوت الموسيقى يعزف وكان كولو قد صنع في تلك الاثناء وليمة فاخرة لاصحابه لانه كان متاكدا ان الكونت يموت من جراحه وهو كان يعتبر نفسه كصاحب الادارة تمامًا ويجتهد ان يخمد قلق

ضميره بالملاهي الدائمة والافراح العظيمة . وبينما كان هكذا جالساً في مقام الشرف قال احد الذين كانوا يخدمون الطعام لصاحبه بكل هدو انا اراهن ان كولو هذا صاحب الدسائس ينجح في هذه الايام بالفتن لكي يكون سيداً علينا اذا مات سيدنا ومع ذلك فلا اريد ان اكون في مكانه انظر كيف هيئته مكدرة وعيناه طائشتان

فاجاب الاخر قد علمت انه ليس بمسرور سروراً حقيقياً وان هو الا محكوم عليه فقد صنع وليمته الاخيرة وهو ينتظر العذاب فلا اريد ان اشاركه في غناه في هذا العالم ولا في العقاب المعد له في الاخرة

ولما وصل الكونت وجنوده الى قرب باب كبير دق النفير فاجاب حارس القصر بنفيره وفر كولو وكل ندمائه عن كراسيهم وعند ذلك دوى القصر بصياح الحاضرين وقالوا قد اتى الكونت قد اتى الكونت واما كولو الذي كان ينتظر كل شيء سوى وصول الكونت

فنزل بكل سرعة واتى متذللا وقبض الركاب فنزل الكونت عن الجواد ونظر الى كولو شذراً والنار تقدح من عينيه ولم يخاطبه بكلمة وظهرت على كولو هيئة الاصفرار والارتعاش كالمجرم امام قاضيه وكان فساد ضميره يظهر في عينيه الغائرتين كانه مكتوب باحرف كبيرة على وجهه ومشي امام سيده ورجلاه ترتجف ولما كان يصعد السلم الكبير كانت يداه ترجفان حتى انه ما كان يقدر ان يضبط المصابيح فلم يرَ الكونت في القصر الا خراباً وانقلاباً ووجد في كل مكان وجوه غريبة مرتعدة والخدم القليلون القدماء الذين بقوا هناك يسلمون عليه والدموع تهطل من اعينهم ولما دخل محل الاسلحة ووضع حلته وسيفه على احد الموائد وطلب كل المفاتيح ودفعها الى امينه فولف آمراً اياهم بالاحتراس على ابواب القصر لكيلا يتمكن انسان من الهرب واوصى خدمه ان يعتنوا بجنوده واشار الى الجميع بيديه ان يبتعدوا عنه ويتركوه وحده وكان اول اهتمامه الذهاب الى مخدع

زوجته وكان كولو قد اسرع بغلقه في الحال بعد القبض على الاميرة ولم يضع فيما بعد قدمه فيه مطلقاً لان ضميره الخبيث كان يمنعه من ذلك وكان كل شيء باقياً على الحالة التي تركنه عليها جنفياف في ذاك الصباح . وكان هناك ايضاً المنسج وعليه تطريز لم ينجز هو اكليل الانتصار المضموم به اللولو على دائرته هذه الكتابة رجوع البطل سيجفروا صنع زوجته الامينة جنفياف وكان هنالك العود فوق كتاب موسيقى يحتوي على التراتيل والنشائد التقوية التي نظمت منها كثيراً في غياب زوجها ووجد ادراج مائدة الكتابة مسودات ورسائل بعنوانه مملوة من المعاني التقوية ومن شواهد المحبة العظيمة حنواً وكانت تذكره في هذه الرسائل كيف كانت تصلي يومياً لاجله حتى يرجعه الله سالماً وكيف كانت تسرّ سلفاً لذهابها الى لقائه حاملة صبياً او بنتاً على ذراعيها وكيف كانت افكارها قلقة على صحته وكم من الليالي تصرفها بالبكاء ولم تذق لذة الوسن ولم يصله من ذلك شيء لان

كولو كان قد قبض على رسالات الكونتة لزوجها وعلى رسالات الكونت لجنفياف فلبث الكونت جالساً في ذلك المحل الى نصف الليل وهو في غاية التحير و يداه مشتبكتان على صدره ونفسه ممتلئة من الحزن الباطن واذا ببرتا ابنة السجان قد اقبلت وسلمته الرسالة التي كتبتها جنفياف في السجن وارته العقد اللولو فعرفه حالاً واخبرته وهي تسكب الدموع عن الجميل التي صنعته الكونتة معها مدة مرضها وعما قالته لها في تلك الليلة حين سيقت للقتل واخبرته اخيراً عن كل ما كانت تعرفه عن سيدتها وحينئذٍ ظهر حزن الكونت وبكى فان كل ما نظره وسمعه لا سيما الرسالة قد دل على طهارة جنفياف دلالة جلية · وبكى حتى بلت دموعه رسالة جنفياف وما كان يفتر من التنهيد والتنحيب وقد صرخ قائلاً يا جنفياف امكن انني اكون قتلتك انت وابني · انني حقاً اتعس الناس · فتقدم منه امينه فولف واجتهد في تسليته

وبعد ما بكى الكونت زماناً طويلا قام بسرعة وطلب سيفه واراد ان يذهب ليعاقب كولو الغدار فمنعه فولف وقدم له انه لا ينبغي ابداً ان يحكم على كولو بدون استماع دعواه فحينئذٍ امر الكونت بالقبض على هذا الخائن وبتقييده وطرحه في السجن الذي ناحت فيه جنفياف زماناً طويلاً وقبض وقتياً على اصحابه كلهم فاجرت الجنود الاوامر بكل فرح وفي صباح الغد امر الكونت ان ياتوه بكولو وبينما هو ينتظر حضوره فقرأ ايضاً مرة اخرى رسالة جنفياف الاخيرة فاثر في قلبه تاثيراً شديداً قولها اصفح له يا زوجي العزيز كما صفحت انا ايضاً وانني اتضرع اليك لاجل ذلك لانني لا اريد ان نقطة دم واحدة ان تسفك بسببي ولما ادخلوا كولو اخذ الكونت وعيناه محمرتان من البكاء يساله بصوت رقيق ماذا صنعت نحوك يا كولو حتى سببت لي حزناً كهذا وماذا صنعت بك زوجتي وابني حتى قتلتهما انما كنت ولداً لما اتيت الى هذا القصر ولم نبدِ نحوك الا

الاحسان فلاي سبب جازيتهما بهذا النوع . وكان كولو يظن ان الكونت يسلم نفسه الى غضبه الاعتيادي ولكن هذه الرقة غير المنتظرة سحقت قلبه . فاخذ يرتعد ويصرخ قائلاً واسفاه ان شهوتي التعيسة اعمتني . اعلم يا سيدي ان زوجتك نقية كملاك . واما انا فاني كنت كشيطان واردت خداعها ولما انكرت اجابة مرغوبي اغتظت واردت الانتقام مع بقائي سالماً وكنت اخشى من ان تقول لك الحق فتميتني فلهذا السبب تقدمت وبادرت لاتهامها زوراً امامك فتعزى الكونت لما راى كولو نفسه احترم طهارة جنفياف فاشار ان يرجعوا بالمذنب الى حبسه ثم غطى وجهه بيديه وسكب الدموع وقد لعن ميله في سرعة الغضب

ومن ذاك الحين استولى على الكونت غموم شديدة حتى خافوا على حياته وكان حزنه يزداد احياناً حتى يصل به الى درجة الجنون واجتمع كل الامراء المجاورين فانهم كانوا من اصدقائه المخلصين لكي يعزوه واما هو

فكان يظهر لهم غير متاثر من محبتهم له وكان يلبث على الدوام في مخدع جنفياف ولا يفارقه الا ليذهب الى كنيسة القصر و بذل غاية اهتمامه بالتفتيش على مكان جنفياف ليرويه من دموعه و يدفن عظامها باحتفال الا انه لم يقدر انسان ان يهديه الى حيث كانت عظامها الكريمة لان الرجلين الذين وليا قتل جنفياف اختفيا ولم يعلم ما الذي حدث لهما فحينئذٍ صنع لها جنازة احتفالية وحضرها هو وكل خدمه وامراء تلك الناحية كافة مع عيالهم بالحزن الشديد وحضره جمهور غفير من الشعب فلم تسع الكنيسة عشرهم ووزع الكونت احسانات غزيرة على الفقراء وصنع لامراته في الكنيسة قبراً فاخراً

الفصل الخامس عشر

وجود الكونت امراته وابنه

ومضى على ذلك جملة سنين حتى رام الكونت ان يفارق قصره ولم يصمم على ذلك حتى الزمه امينه فولف

واصحابه الامراء الذين كانوا يبذلون جهدهم بتسليته فكان يصنع له هذا وليمة فاخرة يدعوا اليها ارباب الالات والملاهي وكان هذا يدعوه ليحضر سباق الخيل على ما في عوائد ذلك الزمان وكان هذا يعرض عليه الذهاب الى الصيد فهذا النوع الاخير من الملاهي احبه سيجفروا منذ صبائه وهو الواسطة الكبرى لتبديد اكداره ولما علم ذلك بقية الامراء تاهبوا لصيد الغزلان والخنازير البرية والذئاب والدباب الموجودة بكثرة في بلاد النمسا الواسعة والتزم الكونت ان يرافقهم دائماً في صيدها واجابة لطلب فولف اذن لهم سيجفروا بالاستعداد ليوم عظيم جداً وفي اليوم المعين في اواخر الشتاء وكان يوماً بهيجاً للغاية وكان الثلج قد تساقط حديثاً وذلك مما يسهل الصيد كثيراً جمع اليه جمهور من اصحابه وسافر عند طلوع الفجر مصحوباً بالامراء والاشراف والخدم والحشم والحفر وركب الناس خيولهم وكان تتبعهم قافلة من البغال تحمل امتعة السفر وسارت معهم كلاب الصيد حتى امتلأ

الغاب ودوى بصوت النفير والطبل فاصطادوا الابل والخنازير البرية ورأى الكونت طريدة هام في اتباعها فطاردها على جواده وهي تفر من امامه وتلتجيء الى الصخور والنباتات ذات الاشواك حتى التجأت اخيراً الى غار جنفياف وكانت الطريدة تلك الغزالة الامينة التي اقتاتت بلبنها جنفياف وولدها زماناً طويلاً

فنزل الكونت وربط حصانه في شجرة هناك واتبع اثار الطريدة على الثلج ووصل الى مدخل الغار وقد اندهش كل الاندهاش عندما نظر في داخل الغار صورة بشرية صفراء مهزولة وتلك الصورة هي جنفياف التي كانت قد تعافيت من مرضها الاخير لكنها لم تزل ضعيفة جداً ولا يمكنها امتلاك الصحة في تلك البرية حيث كانت تستعد يومياً للموت

فصرخ الكونت بها قائلاً اذا كنت من البشر فاخرجي وهلمي الى ضوء النهار فخرجت جنفياف ملتفة باديم النعجة ومنكباها مجللان بشعرها الطويل الذهبي

عريانة الساقين والذراعين صفراء اللون كالميتة وهي ترتجف من البرد

فصرخ الكونت من انت وقد تاخر الى الوراء فزعاً وكيف اتيتِ الى هنا قال هذا وهو لا يعرفها واما هي فعرفته عند اول لمحة

فقالت بصوت ضعيف يا سيجفروا انا زوجتك جنفياف التي حكمت عليها بالموت ولكن الله يعلم بانني بريئة

فكان هذا الكلام كصاعقة اصاب فواد الكونت ولم يعلم هل كان ذلك حلما ام يقظة وكانت احزانه واكداره قد اثرت به فلاح مختل العقل ولما كان في تلك الساعة في وهدة منفردة مخيفة بعيداً عن اتباعه ظن انه يرى امامه خيال جنفياف المغتاظة عليه

فصرخ قائلاً بصوت التاثر يا نفس زوجتي المتوفاة لماذا ترجعين فتأنبيني على ذنبي هل قد جرى قتلك المهول في هذا الغار فمن العدل ان تقوم عظامك عليّ

لكوني اتيت لادوس الارض التي خضبتها بدمك و يظهر خيالك كانه مغضب لجسارة قاتلك على التقدم الى قبرك فانصرف ايها الخيال المغبوط فان توبيخ ضميري يكفي لتعذيبي وارجع الى مساكن السلامة وصلِ لاجل هذا الانسان الشقي الذي لا يذوق راحة على الارض البتة او اقله لا تظهر لي محزناً الى هذه الدرجة بل خذ صورة ملاك وقل لي انك عفوت عني

قالت جنفياف وهي منتحبة يا سيجفروا يا زوجي العزيز الكريم لست انا خيالاً البتة فانا لا ازال في الحياة فحمداً لذينك الرجلين اللذين كادا يميتاني ثم استبقياني

واما الكونت فلم يزل مضطرباً مرتعداً وكأن برقعاً غليظاً حجب عينيه فلم يصغ لاقوال يسمعها بل كان محدقاً ببصره وقد ظن انه يرى خيالاً امامه

فاخذته جنفياف بيدها بمجبة واما هو فجذب يده بسرعة وصرخ قائلاً اتركيني اتركيني فان يدك مصقعة

كالثلج ولكن لا . خذيني اليك فاستريح في قبرك لان الحياة قد ثقلت علي والموت عذب لدي

قالت جنفياف يا سيجفروا عزيزي يـا زوجي الحبيب ونظرت اليه بوداعة ملاك الا تعرف زوجتك انظر انا جنفياف المس يدي ان الخاتم الذي اعطيتنيه لا يزال في اصبعي ناشدتك الله استفق لنفسك اللهم القادر على كل شيء نجه من التخيل السيء

فصحا اخيرا من اضطرابه واستيقظ كانه في حلم محزن وصرخ قائلاً اي نعم هذه انتِ ووقع على رجليها وعيناه تحدقان بتلك الصورة المهزولة ولبث على ذلك بضع دقائق بدون ان ينطق بكلمة واخيراً اراحه هطل الدموع وقال اذن هذه انتِ . انتِ يا زوجتي جنفياف ما هذه الحالة الحقيرة . انا ذاك الذي رميتك في لجة الشقاء هذه . اواه لست بمستحق ان تحملني الارض عليها ولا اتجاسر ان ارفع عيني نحوك هل تصفحين عن كل ما اذنبت به نحوكِ

اجابت وقد ضايقها البكاء يا عزيزي سيجفروا انا ما حنقت عليك البتة لعلمي ان اناساً اشراراً خدعوك وحملوك الى ذلك ولم تزل محبتي لك على نسق متساوٍ وانت ترى جيداً انني ابكي فرحاً لاعادة نظري اليك فقم اذن وتعال الى ذراعيّ

ومع ذلك ما كاد الكونت يتجرأ على النظر اليها وقال لها الا توبخيني مطلقاً على قبيح فعلي هذا ايتها الملكة السماوية والنفس الوديعة المغبوطة فكيف امكنني ان اسيء اليك

قالت جنفياف طمن بالك يا عزيزي سيجفروا واحتسب هذه الاشياء جميعها قد جرت بامر الله فان الحكمة الالهية قد شاءت ذلك ولربما رات الغنى والمجد والتنعم سبباً لالقائي في فساد هذا العالم وشروره فخلصتني من ذلك بالقائها اياي الى هذه الوحدة لعلمها ان في البرية خيراً وخلاصاً

وفي اثناء ذلك وصل دولور وقد تستر بجلد الظبي

وهو يمشي ورجلاه عريانتان وكان الثلج في ذلك الوادي بليغاً وقد حمل تحت ذراعيه اعشاباً طرية جمعها من جانب الينبوع ومسك بيده عرقاً يا كله باشتهاء فحينما لمح الكونت لابساً ملبوسات فاخرة كملبوسات الامراء وعلى راسه هلال من ريش يتموج على جبهته ارتعد ووصل منذهلاً وصرخ قائلاً ماما من هو هذا لربما يكون واحداً من اولئك الناس الاشرار قداتى ليقتلك و بادر الى امه وهو يجوز بكلامه قائلاً لا تبكي انا اقدر ان ادافع عنك فانه يقتلني امامك قبل ان يبدي نحوك شراً . فقالت جنفياف بحنو لا تخف يا ولدي العزيز انظر اليه وقبل يده فانه لايؤذيك ابداً هذا هو ابوك انظره هو يبكي على شقائنا وقد ارسله الله الى هنا لكي ينقلنا الى منازلنا

فالتفت الولد ورفع الحاظه وهو بشعره المجدول وجبهته الشهية وعينيه النجلاويتين انقادحتين نارا وانفه الانقى وفمه اللطيف صورة الكونت الحية فلما نظر السيد

هذا الولد المحبوب في تلك الملبوسات الحقيرة تمزق فؤاده كدراً وبكى وناح ولم يفتر من قوله له يا ابني ثم رفع عينيه نحو السماء وضم ابنه وزوجته معاً الى صدره وصرخ اللهم انها لغبطة عظيمة لقلبي الحزين ان اجد فوراً ولدا عزيزا واراه المرة الاولى وزوجة تظهر لي كانها رجعت من بين الاموات

ثم رفعت جنفياف بصرها نحو السماء بهيئة المتخشع وقالت اللهم ان احساناتك اعظم من ان توصف وانك تقدر في لحظة ان تعوض علينا الام سنين طويلة فلك الشكر والحمد. ولما رأى الولد المحبوب والدته تخاطب الحضرة الالهية بتخشع واضطراب رفع ايضاً يديه نحو السماء وكرر كلمات امه الاخيرة وهي يا الهي لك الشكر والحمد. وهكذا لبث الثلاثة زماناً طويلاً ساكتين لا يبدون حركة الا ان قلوبهم كانت تخاطب الله بما لا يقدر لسان بشري ان يفصح عنه

ثم قالت جنفياف هل والدي في قيد الحياة وكيف

احوالهما وهل يعلمان بانني بريئة لعمري منذ سبع سنين لم اسمع عنهما خبراً . قال الكونت نعم هما حيان واحوالهما جيدة ويعلمان براءتك واني في هذه الساعة نفسها ارسل اليهما ساعياً يخبرهما بانك قد وجدت حية . فرفعت جنفياف يديها والحاظها نحو السماء وصرخت قائلة وهي تسكب دموع الشكر لتكن ممجداً يا الله يا من استجبت صلاتي وتممت اشواق قلبي السرية ومنحتني اكثر مما كنت اطلب واستحق وارجعت زوجي من الحرب واظهرت براءتي ونجيتني من كل مصائبي من الحبس والموت ومنحتني السعادة بتسليمي ولدي المحبوب الى يدي ابيه وتسمح ايضاً ان ارى والديَّ العزيزين فلا جرم انك اله المحبة

ثم قادت جنفياف زوجها الى غارها لانها كانت واقفة على الثلج حافية الرجلين ولم تحتمل شدة البرد فالتزم الكونت بان ينحني لكي يدخل الغار ولما تامل ذلك الفراش الحشيشي وتلك الاوعية المصنوعة من القرع

وسلال القش الصغيرة وهي اثاث مسكن تلك الاميرة الحقيرة التعيسة رق قلبه لذلك وجلس الى جانب زوجته واخذ الولد على ركبتيه وقد نظر من عمق الغار صخوراً شامخة واشجاراً تينج سوداء يغطيها الثلج فصرخ حينئذٍ قائلاً يا جنفياف باية معجزة حفظك الله بقدرته في هذه البرية المريعة هل ارسل اليك ملاكاً من السماء لكي يدارك في عيشتك واردف كلامه وقد اضطرب منه الفواد وا اسفاه كيف اقامت سبع سنين برمتها ولم تذق قطعة خبز ولا نار عندها في الشتاء ولا فراش ولا ثياب وهي حافية الرجلين تطىء الثلج الشديد مع انها اميرة وابنة امير وقد كانت سابقاً تاكل في صحاف الذهب والفضة وتلبس حلل الارجوان والحرير وقد تربت في التنعم والرفاهية فيا يا ايها القلب الحنون والامين الذي سببت له انـا اوجاعاً والاماً هل تعود الى محبتي فان النفس التي مثل نفسك هي كنز عظيم

قالت جنفياف وقد لاح على وجها تبسم ملائكي

اسكت يا عزيزي سيجفروا لا تتكلم ابداً في هذا الشان الله يعلم انه قد تالني في هذه البرية كثير من الفرح والسرور . فهل تخلو القصور الفاخرة من الشقاء وهل السعد يسكنها دائماً والم تصبك احزان انت ايضاً

ثم قالت فلنعدل عن هذا الموضوع ونوجه افكارنا الى شيء اخر انظر ابنك فان وجنتيه تتلألان باحمرار قرمزي وقد نما سناً وصحة بالقوت البسيط لوجوده على الدوام في هذا الفلاء المتسع ولربما تكون عاقبة تربيتنا له في قصورنا الدلال والرفاهية الاصفرار والضعف وفساد الاخلاق ككثير من بني العيال الكبيرة وبهذه الواسطة نكون سبباً له الاماً طبيعية وادبية فلنسر اذاً ولنشكر الله تعالى

ثم اخبرته كيف وقاها الله هي وولدها منذ دخلت الغزالة المرة الاولى الغار الى حين التجأ هذا الحيوان وقد لحقه الكونت هذا وسيجفرا يسمعها بكل اصغاء وصرخ اخيراً قائلاً وقد اظهر احساسات الشفقة ان

العناية الالهية عجيبة في طرايقها وكثيرة هي الوسائط التي تستعملها نحو جميع الناس فلا يبرح من ذهنك اذن يا ولدي العزيز انك ما كنت الا ولداً ضعيفاً مرذولاً من ابيك وما كانت والدتك تستطيع ان تقيتك بل كادت تموت لعدم القوت نظيرك غير ان الله استخدم لها هذا الحيوان الخير ليحفظها واياك وما كانت امك عتيدة ان تلقى على فراش اوجاعها وانت يا ولدي المسكين قريب من الهلاك في هذه البرية المملوة من الوحوش الضارية صار لي هذا الحيوان نفسه دليلاً وقادني الى مأواكم هذا . فان الله قادر ينقذنا من ضيقات كهذه في الوقت المعين بوسائط سهلة لكنها عجيبة للغاية فآمن اذن بالله ما دمت حياً

الفصل السادس عشر

رجوع جنفياف الى القصر

خرج الاب والام من الغار واعينهما تهطل الدموع

واخذ حينئذٍ سيجفروا نفير الصيد الفضي ونفخ به يدعو اتباعه فدوى صوته الشديد الناشيء من ازدياد الفرح وصدى الجبال يردده في تلك الصخور فانذهل دولور لانه ما سمع صوتاً شبيهاً بذلك واراد ان يقتدي بابيه فتبسمت امه لاجتهاده وفي الحال بادر الامراء وخدم الكونت على صوت النفير من كل النواحي بعضهم على الخيول وبعضهم مشاة وعند وصولهم وقفوا ممتلئين عجباً لنظرهم الكونت ماسكاً امرأة مصفرة نحيلة وولداً جميلاً يحمله على ذراعيه فتزاحم الجميع حوله وسكتوا بوقار حيث نظروا اعين الكونت والكونتة والولد تسكب الدموع فحينئذٍ افتتح الكونت الكلام وقال وقد خنقه البكاء ايها الامراء المحترمون وياخدامي الامناء هذه جنفياف زوجتي وهذا دولور ولدي فعند هذا الكلام ضجوا باصوات التعجب والفرح وارتفعت الوف من الاصوات وقالوا اللهم ما هذا هل هذه اميرتنا الموقرة الم تقتل وهل قامت من الاموات كلا ذلك ممتنع فمع ذلك هذه هي اللهم ماهذه

الحالة الشقية انظروا كيف هي ،صفرة ها كونتنا العزيز الصغير الجميل الولد المحبوب ولازدياد فرحهم وتعجبهم وتشوقهم لم يفتروا من الصراخ والسؤال متاسفين ومسرورين معاً

فاخبرهم الكونت بالاختصار عن قصة زوجته. ثم فرق على اتباعه اوامر مختلفة وان يذهب اثنان من الخيالة ياتيان بثياب وهودج للكونتة وان يصنع استعداد لاستقبالها وامر اخرين ان ياتوا ببغال وخيل تحمل الامتعة وان يجمع البعض حطباً و يوقد ناراً عظيمة بجانب تلك الصخور و يصنعوا وليمة ثم باشر الكونت حل احمال الامتعة بنفسه و بسط بقرب النار بعض طنافس واجلس عليها زوجته غب ان غطاها بحلته القرمزية المكسوة بالفرو الاسود الجميل واعطاها قطعة من قماش رفيع لكي تلف راسها و مثّل امامها جميع الامراء الذين ما امكنها ان تعرفهم واتوا بحسب مقامهم وحيوها بكل وقار وقد اعربوا لها عن فرحهم وسرورهم بالفاظ غاية

في الحنو لا سيما فولف فانه خرج من بين الخدم وابدى لها رسوم التحية ولم يستطع ان ينتظر انصراف الامراء

وقال وهو يقبل يديها و يغسلها بدموعه يا سيدتي العزيزة انني انا الان مسرور للغاية لكوني بقيت سالماً لكي اشاهد هذا النهار العظيم والان صرت اموت بدون اسف ثم اخذ دولور الصغير على ذراعيه وقبل خديه الصغيرتين الناعمتين قائلاً له ليكن قدومك خيراً ايها الولد العزيز انت صورة ابيك الحية فلعلك تكون حاذقاً وشجاعاً نظيره لطيفاً وشفوقاً كامك صالحاً وتقياً نظير كليهما

ولما نظر الولد الخيالة توهمهم كما يتوهم بعض الناس الذين عند نظرهم المرة الاولى انساناً راكباً جواداً يظنون انه ومطيته واحداً فقال بابا هل يوجد رجال بستة ارجل وعند ما راى احد الخيالة نازلاً عن حصانه وقد اتى به اليه ساله بابا من اين اخذت تلك الحيوانات فليس نظيرها في حرشنا هذا وعند ما تامل الحصان

عن قرب ولمح في فمه لجاماً ثميناً مرصعاً من ذهب وفضة صرخ قائلاً هل الخيل تاكل ذهباً وفضة ولما نظر اشتعال النار توجهت افكاره الى موضع ثان وصرخ قائلاً ماما هل ذهبت الناس وفتشت البروق الساطعة مع الغيم او صنع الله تعالى لهم منحة و بينما كان يتامل في ضياء النار التي اخذت تدفئه قال هذه هدية جميلة جداً من السماء اليس هكذا ماما لو كنا عرفنا ذلك سابقاً لكنا تضرعنا الى الله تعالى لكي يمنحنا منها شيئاً و كنا انتفعنا منها نفعاً عظيماً في الشتاء الشديد البرد وعند مناولته الطعام اخذ يتامل الاثار الجميلة التي جذبت افكاره فوضع يده على تفاحات لطيفة قرمزية وذهبية اللون وصرخ قائلاً بابا لا شك في انه لا يوجد عندك شتاء لكونك تاتي باثار كهذه جميلة وطرية للغاية فلذلك يحسن بنا ان نجعل اقامتنا عندك وكان لا يتجاسر ان ياكل من تلك الاثار الجميلة الا قليلاً وهو يقول يا لها من خسارة . ثم نظر الى الكؤوس وتأملها ولم يتجاسر ان يامسها ثم اخذها بكل

احتراس ومسكها لحظة بيده وصرخ قائلاً وهو متعجب انا كنت اظن هذه الانية تذوب اذن ليست جليد وعند ما اوضحوا له من اي شيء تصنع الكاسات صرخ قائلاً ما اكثر الاشياء الجميلة والعجيبة التي خلقها الله تعالى واعطاها للناس وكانت معرفتها محجوبة ومخفية عني وسر لنظره في الكاس صورة امه وجميع الجالسين على المائدة ولما وضع امامه احد الخدم صحناً يتلالأ كالفضة ونظر صورته كفي مرآة ارتعب جداً حتى انه رجع الى الوراء من الاندهاش ثم وضع يده وراء الصحن لكي يمسك الولد الذي كان يظن انه يراه فظهر له ان لا وجود لذلك الولد في الحقيقة وتعجب لنظره ولداً في داخل الصحن نظيره تارةً عابساً وتارة ضاحكا فسر الحاضرون من اعمال هذا الولد وبقدر ما بكى والداه كانا يضحكان وكان جميع الامراء والخدم يجيبونهم بالانشراح والسرور وما انتهى الاكل الاوقد رجع الساعي بثياب الكونتة فدخلت جنفياف الغار وشكرت اولا

الله لنجاتها العجيبة ثم لبست وخرجت متسربلة بملابس تليق بمقامها ولكونهم كانوا ملتزمين بان ياخذوا طريقاً اخرى لكي يأتوا بالهودج صنع الاتباع شبه مركبة من اغصان شجر الراتينج القوية وبسط الكونت طنفسة واجلس جنفياف ودولور عليها وساروا في طريق القصر

فعند نصف الطريق التقوا بالهودج اللائق بجنفياف فدخلته هي وولدها ولما قطعوا الغاب اتى جمهور من الخدم للقائهم وكان قد انتشر حالا في كل البلدة وسائر الجهات المجاورة خبر وجدان الكونتة وترك الحراث اعمالهم واخليت قرى بثمامها من السكان ولم يبق فيهـا الى المرضى ولبس الجميع ملابس الافراح البهية غايـةً واسرعوا لينظروا حاكمتهم الفاضلة فكان ذلك النهار عيدا عمومياً لكل البلدة ، وكلما كانت جنفياف تقرب من قصرها كان عدد الاتباع الذين ينتظرونها على جانب الطريق يتكاثر وقد حياها الجميع بتهليل الفرح المقرون بدموع الشفقة

وكان بين الخدم الذين اتوا لملتقاها ناسكان كستهما الاهابة والوقار طويلا اللحية وعلى راسهما وقبة حلتيهما الصدف المعلق فاتيا في الحال وتقدما من الهودج وركعا امام جنفياف وكانا هما الجلادين اللذين كان قد فوض اليهما قتلها وطلبا منها المسامحة والغفران لاسيما كورانتز لتركهما اياها في الغابة في المخاوف والشقاء عوضاً عن ان ياخذاها الى عائلتها في برابان واخبراها انه بعد ايام من حدوث تلك الحادثة خافا على انفسهما من جور كولو فسافرا الى بلاد فلسطين سائحين وكان رجوعهما منذ ايام قلائل وانهما لم يزالا طائفين في تلك البلاد وما جاورها ولم يعرفا عيالهما بما حاق بهما خوفاً من عاقبة الامور ولما علما بموت جنفياف قصدا ان لا يعلنا شيئاً مما جرى لئلا يجددا حزن الكونت ثم جازا بكلامهما قائلين واسفاه كيف يا سيدتنا العزيزة لم تفترسك الوحوش الكاسرة

فاقامتهما جنفياف وبسطت يدها اليهما وقالت يا خادمي الامينين ان حياتي وحياة ولدي من بعد الله

منكما هلمّ يا دولور واشكر فضلهما فلولا خوفهما من الله اكثر من الناس لقتلاك ثم قالت وهي تتبسم بوجه السائحين المذكورين ولا تندما الان على صنيعكما وقد ابقيتمانا في الحياة

فصرخا قائلين قد تيقنا اننا احسنا الصنع بابقائك ولكن الان نعلم جيداً ان ذلك كان قبلاً وانه كان يجب علينا ان نخاطر باعز الاشياء عندنا لكي ناخذك الى والديك ثم انطرح السايحان على رجلي الكونت وطلبا المسامحة وشكراه عما ابداه نحو نسائهما واولادهما من الاحسان وقد انذهلا لشهامة جنفياف اذ اوصت زوجها في رسالتها الاخيرة ولاعتناء الكونت الابوي باجرائه ارادة زوجته البارة فقال الكونت لم اعلم انكما شفقتما على زوجتي وابني وعفوتما عن حياتهما ولكن لما كنت احسن الى عيالكما المتروكه اتممت ولم اعلم كلام المخلص القائل طوبى للرحماء فانهم يرحمون فاذهبا بسلام وتاكدا محبتي

ولما وصلت جنفياف الى قصر سيفروابور دقت

لها الاجراس لان الشعب اراد ذلك ايظهر علامة السرور العمومية ولم يامر بذلك الآمرون وكان الجمع يتقاطر الى نواحي سيفروابور على ما يمتد النظر ويصعد على الاشجار وكانت كل شبابيك المدينة وسطوحها غاصة بالناس ليشاهدوا مولاتهم التي بكوا لفقدها زماناً طويلاً وكانت ابصارهم متجهة اليها وقد ضجوا جميعاً باصوات الفرح حتى لا تكاد تسمع صوت الاجراس فكانت تغض بصرها وهي جالسة في الهودج خجلاً لاستقبالها بهذا الاحتفال وكانت تمسك دلور على ركبتيها وهو لا يزال لابساً جلد الظبي وكان سيجفروا يتقدم راكباً على يمين الهودج وعلى شماله امينه فولف وورائهما السائحان والغزالة تلحقهم والامراء قد انقسموا الى جوقين احدهما يتقدم المحفل والاخر يتبعه

وكانوا كلما توغلوا في وسط تلك الجماهير ازداد ارتفاع اصوات الفرح وكانت الامهات تقول لاولادهن هذه مولاتكم التي بكيناها زماناً هذا مقداره . وكان

الوالدون يرفعون اولادهم الصغار الى فوق رؤوسهم قائلين انظروا هذه هي التي غمرتكم بالاحسان . وكان الشيوخ يكون فرحاً و يرتعشون اضطراباً وقد توكأوا على عكاكيزهم

ولما وصلت جنفياف الى ساحات القصر ابصرت امام الباب الداخلي النساء والبنات مجتمعات ليستقبلن و يحيين جنفياف وقد طفحت افئدتهن حبوراً لاعتلان براءتها ونجاتها العجيبة محتسبات ذلك النهار الجميل يوم انتصار الفضيلة وعيداً عمومياً للنساء الفاضلات وامامهن فتاة جميلة المنظر متزينة بالملابس البيضاء وفي عنقها عقد من الجوهر فقدمت هذه لجنفياف اكليلا من الريحان المزهر اشارة للبرارة والامانة وقالت خذي هذا الاكليل الذي خصتك به جميع النساء وقد اعد الله لك اكليلاً اخر يفوقه جمالاً

ولم تعرف الكونتة تلك الفتاة فاعلموها بانها برتا التي كانت زارتها في حبسها ولم تبلغ حينئذٍ من

العمر الا اربع عشرة سنة وقالت النساء ايتها السيدة ان برتا وحدها اهتمت بمصائبك فلذلك رايناها من اللائق ان تكون اول من يتقدم لتهنئتك بسعادتك هذه

حينئذٍ تذكرت جنفياف تلك الليلة الهائلة وقالت في نفسها من كان يظن انني اخرج من بين هذه الجدران كمجرمة تعيسة وولدي على ذراعي وادخلها يوماً ما باحتفال مجيد فانت وحدك يا الهي كنت تعلم ذلك ومنذ ذاك الحين اعددت لي هذ النهار البهج ثم اتبعت كلامها وهي تقبل الاكليل باحساسات التواضع وتعانق برتا . اللهم اذا كنت تخوّل الطهارة والفضيلة سروراً ومجداً هذا مقداره على الارض فاية سعادة تخولها في السماء . فاجاب فولف قد اصبتِ يا سيدتي انتما وان كنا لا نرى دائماً الطهارة حائزة الاكرام والظفر فان الله بعنايته يرغب في ان يخولها ذلك احياناً لتكون رمزاً يشير الى السعادة السماوية المعدة لها ثم التفت نحو سيده وقال يا سيدي الكونت ها قد صار لي ثمانون سنة

في خدمة العسكرية وحضرت مراراً عديدة محافل انتصار في هذا القصر ولكني لم ارَ يوم انتصار كهذا فاجاب الكونت اعلم يا حبيبي الصالح ان الله نفسه اعد هذا اليوم ليعظم نصر الفضيلة على الرذيلة فصفق جميع الحضور بالايادي وقرّ راي البنات ان يكون الآس اكليل العرس كاشارة تدل على العفاف والطهارة والامانة لاخضراره الدائم وزهوره البيضاء ولم تزل هذه العادة في جهات كثيرة

وكانت مسرات ذلك النهار الكثيرة قد اتعبت جنفياف حتى اعيتها فاتوا بها حالاً الى منازل لم تلقِ رجلها بها منذ سنين وبعد تقديم الشكر لله حدّثت ارملة دراكو التعيس الامين ووعدتها بحمايتها ثم اخذت قسماً من الراحة وعائلة دراكو مع عائلة برتا حازاتا من ذلك الحين سعداً كاملاً في قصر الكونت سيجفروا

الفصل السابع عشر
الاسقف البار

ولما كان الفرح والسرور قد استولى على الجميع في سيفروابور كان الحزن الشديد لم يزل في قصر الدوك دي برابان مستولياً على والدي جنفياف وان الشيخ فولف مع كبر سنه تقدم قاصداً السفر الى والدتي جنفياف يبشرهما بهذه البشارة فبذل الكونت غاية جهده ليمنعه من ذلك مظهراً له صعوبات هذا السفر الطويل ومشقاته غير ان هذا الخادم الامين اذ كان متعلقاً جداً بساداته لم يرضَ ان يحظى احد سواه بازالة حزنهما فسافر في اثني عشر فارساً تخفره في الطريق ولما وصل الى نصف الطريق علم ان الاسقف الذي كلل سيجفروا على جنفياف كان في مدينة على بعد اميال من الطريق بكرس كنيسة بنيت حديثاً فتوجه فولف حالاً اليه لعلمه بانه من اصحاب الدوك دي برابان الخلوصين ولكي يحدثه في الوسائط التي يلزم استعمالها لاجل اعلام والدي جنفياف

بهذا الخبر السعيد والتدابير اللازمة لمنع اخطار مزيد الفرح فجأةً فانذهل الاسقف من الفرح وقدم الشكر لله لانهاء مصائب هذه العائلة نهاية سعيدة وقال لفولف كن مطمئناً فاني اعلمها بنهاية حزنهما فان وظيفتي تقضي ان اذهب الى ذينك الوالدين ويمكننا السفر معاً فسر فولف لسفر الاسقف معه . وكان الدوك والدوكة من حين وصول خبر موت ابنتهما قد عينا تذكاراً سنوياً في كنيسة قصرهما يصرفانه في الصلوات والبكاء ففي صباح العيد السنوي كانا قد شاخا كثيراً وكانا لابسين ثياب الحزن وان قصرهما الذي كان بهجاً امسى كالقبر وكانت قد دنت ساعة احتفال جنازة جنفياف ولم ينتظر سوى الاسقف الذي كان يتم ذلك على المذبح نفسه الذي كان قد بارك فيه اقترانها بسجفروا . وكان الدوق ساكتاً ويقول في نفسه يا له من عار ان نرى عائلتنا الدوكية تمحي على هذه الصورة . مع ذلك فلتكن ارادتك يا الله وكانت الدوقة تقول في نفسها اواه ان ابنتنا المستحقة كل

حب نفقدها بيد الجلادين ان هذا امر هائل يا جنفياف
كنا نومل ان نراك كملاك معزٍّ بقرب فراش موتنا . . .
لكنها اردفت كلامها في الحال قائلة لتكن مشيئتك
يا الله . وفي تلك الساعة دخل الاسقف ووجنتاه
تتلالان افراحا وصرخ قائلا اطردا حزنكما وافرحا بالرب
ثم اخذ يكلمهما عن طرق العناية الالهية مذكراً اياهما حزن
يعقوب لما كان ينوح على فقد يوسف ابنه وشبهه بحزنهما
على ابنتهما ثم ابان لهما سعادة يعقوب لما وجد ابنه فتاثرا
من فصاحة الاسقف العذبة وكانت صورة افراح يعقوب
واعتقادهما ان اله الحكمة قد جعل لكلٍّ نصيباً يملاهما
فرحاً ويطرد عنهما كل حزن فقالت الدوقة ما اعظم
سعادتنا لحصولنا على مثل هذا الفرح . فاجاب الدوق
لا نرى في هذه الدنيا ابتنا بل في السماء . قال الاسقف
وفي هذه الدنيا فان الله قادر على كل شيء فاذا ارسل
الضربات فهو قادر على ازالتها ولم يزل حياً اله يعقوب
فهو الذي قوّى قلبكما وشدده فلم تكسره شدة الحزن

يقويه الآن لكيلا يسقط من مزيد الفرح فان جنفياف
حية وسوف تريانها وكانا ينظران اليه بعين التعجب
وهما يرتجفان وكان الامل والخوف يحركان قلبهما ولم
يفهما ما كان يقوله هذا الاسقف لهما ففتح الاسقف الباب
ودعا فولف وقال ها هو الرجل الذي يشرح لكما الامر
مفصلاً فدخل وهو يهتف قائلاً اي نعم يا سيدي ان
الكونتة جنفياف لم تزل حية فذاع الخبر في القصر فاجتمع
كل الخدم والجواري ممتلئين عجباً وحيرة . وكان فولف
يخبر الدوك بالحوادث الشهيرة التي جرت لها والجميع
يصغون اليه بمزيد الحب وما كاد ابواها يصدقان ما قيل
لشدة ما استولى عليهما من السرور ولما زال اخيراً الشك
بحقيقة الوقائع انتبها كمن حلم عميق ورايا انهما في حياة
جديدة فصرخا قائلين ان ابنتنا حية فلنذهب ونراها
ونعانقها قبل ان نموت . وبعد تقديمهما الشكر لله سافرا بدون
ابطاء الى سفروابور ورافقهما الاسقف البار وفولف
وخيالته وموكب حافل من الخدم

وفي تلك الاثناء وجهت العناية التامة نحو جنفياف واستراحت روبدًا رويدًا وكان شوقها الوحيد في العالم ان ترى والديها حتى راتهما قد وصلا في وقت غير منتظر فلا يمكننا ان نعبر عما حصل في هذه المقابلة بين جنفياف ووالديها فقال الدوك باضطراب كاضطراب سمعان الشيخ الان اطلق عبدك ايها السيد حسب قولك بسلام فان عيني قد ابصرتا يوم الخلاص هذا وعند ما كانت الام التقية تعانق ابنتها قالت وقد اضطربت كيعقوب الان اموت مسرورة لكونكِ لا تزالين حية وعرفت طهارتك ولما نظرا دولور البديع صرخ كلاهما قائلين اهذا هو ابن ابنتنا تعال تعال الى ذراعينا واخذه جده على ذراعيه وقبله قائلاً يباركك الله ايها الولد العزيز ثم اخذته الدوكة من ذراعي جده الى ذراعيها وابتدأت تقبله وتذرف الدموع قائلة يباركك الله ايها الولد المحبوب ثم صرخ كلاهما معًا اللهم ما اعجب عنايتك . نحن قد كنا نبكي على موتك يا ابنتنا العزيزة وكنا نظن انـا

لا نراك في هذه الدنيا والان قد اعادك الله الينا مصحوبة بولدك . وعند ذلك دنا الاسقف البار الذي لم يتمكن سيجفروا وزوجته من رؤياه لما كللهما ولما نظراه فوراً ظنت جنفياف انها قد رأت عزيزاً من الاعزاء فقدم التهاني لهما وقال بصوت ملهم الان قد تم الرب ما جال في فكري لما باركتكما بركة الزيجة فهو الذي امتحنك يا ابنتي العزيزة بمصائب عظيمة ليعدلك سعادة قدر وجودها في هذا العالم ورتب الحوادث خلافاً لما كنا نظن وهو ياتي بما يغاير امالنا ليجمعنا امام هيكله كما جمعنا يوم زيجتكِ ولكن بعد مصائب عظيمة . ها قد اتى اليوم العظيم فنشكر فيه عنايته الالهية وليس احد منا الا وهو في هذا الاجتماع غير ان عددنا قد زاد بهذا النجل المبارك غصن هذه العائلة الشريفة فطوبى لمن يحتمل التجارب فانه يخلص منها نقياً ويحظى با كليل الحياة الذي وعد به الله جميع الذين يحبونه وهذا الاكليل محفوظ لكم

الفصل الثامن عشر

استقبال جنفياف تبعتها

ولما عرف الناس ان جنفياف قد ارتاحت من اتعابها والامها وقد حصلت على الصحة بادروا من كل الجهات لمشاهدتها وقدموا لها تحياتهم ولما كانت جنفياف قد شعرت باحساسات المودة المتجهة نحوها من الجميع امرت فولف ان لا يرفض احداً حتى ادنى الناس من الدخول اليها وكان يسمح بالدخول لكثيرين دفعة واحدة فكانوا يدخلون بكل ادب ولا يتجاسر احدهم ان يرفع صوتاً . وكانت جنفياف تجلس على كرسي متسربلة بالحلة البيضاء وكان يلوح على وجهها اللطيف دلائل التقوى والحنو . وكانت تخاطب زائريها باقوال صالحة . وتقول لهم يا احبائي انني اشكركم لاهتمامكم بي في الشدة والرخاء انني ارى جيداً انكم لا تخلون من الحزن والغم وان كثيرين منكم احزانهم وعذاباتهم كثيرة في هذه الدنيا ولكن اتقوا الله وامنوا بعنايته وتشجعوا فانه ينجي

جميع المتكلين عليه ومتى فقدنا شيئاً فهو يقدر ان يعيننا وقادر ان يحول كل شيء الى خيرنا فيجب ان تقنعوا بالقليل لان الحاجة لا تمنع الغبطة هذا ما تعلمته في وحدتي ومهما كنتم فقراء فانكم لا تبلغون فقري مدة السبع السنين الطويلة فانتم لكم مآوى وملبوسات وفرش وعندكم في الشتاء نار لاجل تدفيتكم فماذا يلزم اكثر من ذلك للانسان الحكيم لكي يعيش مسروراً فاتكلوا على الله لا على الدرهم فما الدراهم الا معادن حقيرة فتمسكوا بحبال الله وثقوا به ثقة خلوصية فمن يتحد بالله ويكن تعالى داخل فؤاده ينال السماء فبالصلاة نقوى على احتمال المصائب وتختبرون ذلك مدة حياتكم كما اختبرته انا . ثم افتكروا دائماً بالصليب فانه خلاصنا فبالصليب والالام والموت دخل يسوع مجده السماوي وبطريق الصليب والالام والشدائد ندخل ملكوت السماوات فيجب يا احبائي ان نسلك في طريق الخلاص هذه بالايمان والتسليم الذي تخولنا اياه

الديانة فوعدها الجميع بذلك وقبّل كلٌّ يدها وانصرف .
فهكذا كانت جنفياف تستعمل مخبرتها ومصائبها في التعليم الروحي للذين اتوا لينظروها وكان عندها ارشاد خصوصي للعرسان والوالدين فكانت ترشد العرسان على الوفق والمودّة المتبادلة وتقول لهم احذروا ان تصغوا الى الالسنة الردية الراغبة في تكدير رفعتكم لان النميمة تفسد احسن البيوت العامرة واوصت الوالدين بتربية اولادهم بخوف الله ولم يخرج غلام من محل جنفياف الا وقد اخذ شيئاً جميلاً تذكاراً . وكان دولور متوكلاً على توزيع هذه الهدايا عليهم

الفصل التاسع عشر

عقاب كولو

وكان الجمع كلما رجع من لدن الكونتة يجب ان ينظر كولو الذي كان قد حكم عليه بالموت بما انه نمام وظالم وقاتل لو لم تلحّ جنفياف بالتماس العفو عنه فبدلت عقوبته بسجن مؤبد ولم يكن للسجان المفوض اليه امر حراسته

الا وقت يسير يرتاح فيه الا انه كان يباشر ذلك بكل سرور وكان دائماً يخاطب المتفرجين هلموا وانظروا فقد رأيتم في محل الكونت قاعدة الفضيلة والبرارة فترون هنا صورة الرذيلة والاثم وعند مشاهدتهم كولو يرتعشون لانه بالحقيقة كان منظره مرعباً وشعره منتشراً على وجهه بلا انتظام وكانت لحيته طويلة قبيح المنظر مصفر اللون ومتغير وكانت عينيه وحشيتين وضميره الخبيث كان يعذبه جداً حتى انه كان يقع غالباً في حال الجنون . وكثيراً ما كان يصرخ ويقول يا لعظم الجنون الويل لمن يبتعد عن الله ويصغى لصوت ضميره فانه يذق في بادىء امره بعض افراح ومسرات باطلة غير ان ذلك يتحول اخيرا الى شقاء وكانه يمشي اولاً على ازهار فيسقط بغتة في هوة قد اعدتها له تلك الازهار . الويل لمن يشتهي المسرات المحرمة فيظن انه يدنو من شجرة ورد مزهرة ويمد يده ولكن حالاً تنفخ افعى وتثب من الشجرة وتلتف عليه تمزقه ولا يكن لعذابه نهاية . وكان احياناً يسال مع

انه كان قد بلغه الخبر و يقول اعلموني هل خبر وجدان الكونتة وولدها موكد وهل ذلك حقيق او حلم كلا ثم كلا ليس ذلك حلماً بل حقيقية واني لموقن بذلك وكان يقول بصوت مضطرب ان اله الانتقام قد خلصها من هذا السجن المظلم حيث كنت حبستها واسقطني انا فيه وكان يقول وهو يقرع بيده البلاط نعم هذا المكان كانت جالست حيث انا جالس في نوبتي الا تعتقدون ان الله عادل واحياناً كان يصرخ قائلاً هلمّ فلنذهب خذوني الى مكان العذاب وكان يستتلي كلامه وهو ينهض منتصباً ها انا اذهب الى هناك طوعاً لاني قتلت امـاً فاضلة وولدها وينبغي قطع راسي لسفكي دمـاً ذكياً انظروا ها ان يداي لم تزالا ملطختين بالدم انظروا سيول الدموع التي تسيل من عيني فهي لا تقدر ابدا ان تغسل يدي فيجب اذن ان يجري دمي وكان يقول وهو واضع يده على صدره المكشوف انا ارضى بذلك طوعاً فخير لي ان اتخلص حالاً تحت سيف الجلاد من

ان احتمل زماناً طويلاً العذابات المريعة التي اتكبدها الان هنا

ولما كان يفتح باب السجن المظلم كان يحدق بصره الى الناس الداخلين اليه ويصرخ بهم ضاحكاً بهيئة مريعة انهم ياتون بكم لكي تكونوا برفقتي اليس كذلك انتم ايضاً قد خدعتم بغرور الرزائل وثلبتم الطهارة اروني ايديكم اليست ملطخة بدم ودموع ام وولد مسكين انتم تخافون ولا تتجاسرون على اظهارها اي نعم ان يدكم هي ملطخة كيدي وتجرمون نظيري فادخلوا ادخلوا يا رفقائي فكان كل من يراه يقول خيرٌ لي ان اعيش في البرية واقتات من العروق والبقول وانا على صلاح وتقوى كحنفياف من ان اعيش نظير كولو في قصر بين جماعة خبثاء ولا تكون هذه نهايتي . فكان السجان يجيب وهو يقفل باب الحديد قد اصبتم فانه وان كانت العيشة الاثيمة لا تأتي دائماً بنهاية تعيسة هذه مقدارها في هذه الدنيا الا انها تكون نهايتها لامحالة اكثر خوفاً من هذه

في الاخرة . وعاش كولوسنين عديدة بهذه الحالة المريعة ودود الضمير يقرصه وقد اشتد عليه الياس الشديد وتعذب اشد عذاب لتذكره ذنوبه ولم يحز راحة مطلقاً الى حين وفاته

الفصل العشرون

ولما كان الاولاد من عادتهم ان يرغبوا في الفرجة فبعد ان نظروا جنفياف ودولور وكولو كانوا يتشوقون ان ينظروا الغزالة الامينة وكان الكونت قد اقام لها في حظيرة القصر محلاً جميلاً جداً وكانت تتنزه فيه وفي الدار حتى وفي ضمن القصر ايضاً على هواها وكثيراً ما كانت تطلع في النهار الى مخدع جنفياف ولا تنصرف الا بعد برهة وكانت انيسة مع الجميع حتى انها كانت تاتي وتاكل من يد من يقدم لها شيئاً وكلاب الصيد التي كانت تعرفها لم تكن تؤذها مطلقاً وكانت الاولاد تبتهج من نظرها الى ذاك الحيوان الجميل وكانت تعطيه خبزاً وتسر بملاطفتها له وكانت الامهات تقول يا الهي لولا

هذه الغزالة الامينة لكانت هلكت كونتنا العزيزة وكونتنا المحبوب جوعاً في البرية . فكان الخادم المتعاطي ملاحظة الغزالة يجيبهم قائلاً لهذا لا يجب ان نعذب حيواناً لانه لولا الحيوانات لكنا نقضي حياة محزنة نظير حياة سيدتنا ولولا الثيران للفلاحة لامست الارض قفراً حقيقياً ولم يوجد فيها الا قليل من الحقول المفلوحة فلنحذر اذن من اتعاب حيواناتنا الانيسة ونشكر الله لاجل هذه المنة

هذا ولا يعلم بالتحقيق اي سن بلغت جنفياف ولكن من الموكد انها عاشت سعيدة كل حياتها وكانت على الدوام ملازمة اعمال الرحمة بدرجة عظمى وكانت نهاية ايامها عذبة وهادية وذات سلامة واخر يوم من حياتها يشبه ليلة ربيعية جميلة تلي قصف عاصفة وقد شابه موتها غروب الشمس المتلالئة التي لا تزال ترسل اشعة انوارها الى ان تتوارى عن ابصارنا حتى تشرق باكثر ضياء في عالم ابهى واحسن رونقاً وحضر جنازتها محفل لا يحصى وبكى الجميع على قبرها وسقاه سيحفروا

ودولور بدموعهما والغزالة ما فارقتها البتة وماذاقت القوت الذي كانوا ياتونها به وفي صباح احد الايام وجدوها ميتة على قبر سيدتها فاقام الكونت لجنفياف قبراً من رخام ابيض مزيناً جميلاً مصوراً عليه صورة الغزالة الامينة واقام الكونت في شمال الغار منسكا طبقاً لطلب جنفياف فاصبح مزاراً تزوره الناس واخذ الكبار والصغار يقتدون بمثالها . فقصر سيفر وابور الذي كان يدعى ايضاً سيفردشيم وسمرن حيث سكن سيجفروا كان واقعاً في مقاطعة الران والموزل الا انه هدم من تقادم الزمان والآن لا يرى بقرب كوبلنتز الاَّ خرابات معروفة باسم سمرن القديم ولكن ما لمكن الدهران يهدم شيئاً من قلوب ذريتها من المحبة والاكرام لفضائل تلك المراة العجيبة واقيمت كنائس على اسمها حتى انه لم يزل في ايامنا هذه كثير من النساء والبنات تسمى

باسم جنفياف

الموقرة

Princeton University Library
32101 086396601
(RCPPA)
PJ6171
.N35
1922
AP